الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة الجزائر2
University of Algeria 2
كلية : الآداب واللغات الشرقية
قسم : اللغة العربية وآدابها

الميدان :الآداب واللّغات
شعبة :الدارسات الأدبية
التخّصص :أدب عربي قديم

محاضرات في الأدب الأندلسي

الطور : ماستر
السنة : الثانية (ل.م.د)
السداسي : الثالث

من إعداد الدكتورة : إسراء هيب
الرتبة: أستاذ محاضر قسم – أ –

السنة الجامعية : 2025/2024

الفهـــــــــــرس

- الفهرس.....ص 2
- مقدمة.....ص 4
- المحاضرة الأولى:

تاريخ الأدب الأندلسي (1).....ص6

- المحاضرة الثانية:

تاريخ الأدب الأندلسي (2).....ص17

- المحاضرة الثالثة:

الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية.....ص25

- المحاضرة الرابعة:

تطور الشعر الأندلسي واتجاهاته.....ص30

- المحاضرة الخامسة:

شعر وصف الطبيعة (المتحركة والصامتة).....ص40

- المحاضرة السادسة:

امتزاج شعر الطبيعة بالأغراض الشعرية وخصائصه.....ص51

- المحاضرة السابعة :

شعر الفخر والحماسة في الأندلس (1).....ص56

- **المحاضرة الثامنة:**

شعر الفخر والحماسة في الأندلس (2).....ص64

- **المحاضرة التاسعة:**

رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي.....ص74

- **المحاضرة العاشرة:**

موضوعات شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس.....ص80

- **المحاضرة الحادية عشر:**

فن الموشحات الأندلسية.....ص86

- **المحاضرة الثانية عشرة:**

النثر الأندلسي (1) طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,ص100

- **المحاضرة الثالثة عشرة:**

نماذج مختارة من كتاب طوق الحمامة (شرح وتحليل).....ص108

- **المحاضرة الرابعة عشرة:**

النثر الأندلسي(2) رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي.....ص117

الخاتمة.....ص130

- **قائمة المصادر والمراجع.....ص131**

مقدمة

طالما كان للأدب الأندلسي بريقه وخصوصيته، فهو يحمل عبق مرحلة تعدّ من أزهى مراحل تاريخنا العربي، ويشهد بعظمة الحضارة العربية الإسلامية وما أسدته للبشرية من إنجازات عظيمة في شتى مجالاتها العلمية والمعرفية، ولا يزال صدى الأندلس يتردد بعد ستة قرون من سقوط حضارتها التي كانت منارة إشعاع عالمي دام ثمانية قرون ونيّف.

وفي إطار تنوّع الأجناس الأدبية في الأندلس، والخوض في دراسة كلّ منها وإلقاء الضوء على أنواعها وخصائصها وأبرز أعلامها، جاء مقياس الأدب الأندلسي بمحاضراته الأربع عشرة، والمصنّفة ضمن الوحدة التعليمية الأساسية المقررة والموجهة إلى طلبة السنة الثانية ماستر، تخصص أدب عربي قديم، بدأت فيه بعرض تاريخي موجز لبعض الجوانب السياسية التي كان لها أثر كبير في مجريات كبرى الأحداث والوقائع في الأندلسي، بما يجب أن يلم به طالب العلم المقبل على دراسة الأدب الأندلسي، فهو حقل خصب ومجال واسع عريض، يهدف إلى تمكين الطالب من التعرف على:

- مكانة الأدب الأندلسي وفنونه الشعرية والنثرية.
- التأثر والتأثير بين الأندلسيين وأخوانهم المشارقة في مختلف الفنون والعلوم ,
- التجديد في بعض الأغراض والموضوعات حيث ألبسوها حلّة أندلسية فيها إبداع وخصوصيّة وتميّز.
- أعلام برزت أسماؤها في ساحات الأدب والفن من شعراء ووشّاحين وكتّاب.
- أهم النصوص والتجارب الإبداعيّة في كل فنّ وعصر.
- تجليات عصور القوّة وعصور الضعف في الإبداع الأدبي.
- الخصائص الفنية التي ميّزت الأدب الأندلسي من غيره، وأعطته نكهته وأبرزت جمالياته.

كل هذا وغيره مما يوسع مدارك الطالب المتعلقة بهذا المقياس، وتوسع عنده نطاق البحث في هذا المجال الخصب، وتتيح لديه فرصة التعرف أكثر على قضايا أندلسية متنوعة.

وهذا الطرح جعلنا نسعى إلى جمع المادة العلمية الموافقة له، مع مراعاة تنوع المصادر والمراجع وانتقاء الأجود والأوثق منها.

ومن أبرز هذه المصادر:

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري. أحمد بن أحمد.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام. أبي الحسن علي الشنتريني.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري . محمد المراكشي.
- الإحاطة في معرفة أخبار غرناطة لابن الخطيب. لسان الدين.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي. عبد الواحد.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي.أبي عبد الله بن فتوح .

ومن أهم المراجع:

- الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط . لهيكل. أحمد .
- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات– الأندلس. لضيف. شوقي.
- التاريخ الأندلسي. للحجي. عبد الرحمن علي.
- تاريخ الأدب الأندلسي لعباس. إحسان.
- في صحبة النص الأدبي الأندلسي لعطية. إسلام ربيع.
- في الأدب الأندلسي للداية. محمد رضوان.

ونرجو أن تحقق المطبوعة الأهداف والآمال المرجوة، وأن يلمّ طالب الماستر، وهو على أبواب التخرج، على كمٍّ معرفيّ معتبر من المنجز التراثي ومؤلفاته المتنوعة في مختلف العصور والأمصار.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الشعر، النثر، الموشحات، الخصائص، الأغراض .

المحاضرة الأولى

تاريخ الأدب الأندلسي (1)

لا بد من استعراض سريع لتاريخ عصور الأندلس عامة، حتى تتوضح لنا مواطن القوة والضعف التي كان لها أثر واضح في الأدب بشقيه الشعري والنثري.

فقد عاشت شعوب أوربا في ظلام وهمجية وجهل تعاني حياة تعسة وشاقة وكئيبة، تعجّ دنياهم بالمناكر والسيئات وحروب وحشية تذكيها الكنيسة التي تتبنى أفكارا جامدة ومواقف لئيمة تدعو إلى الصليبية، الأمر الذي أدى إلى انغماسهم في وحول الأمية والجهل، فأخذت علامات الهبوط الفكري والعلمي والثقافي والخلقي تتبدّى في تعاملاتهم وتصرفاتهم بوضوح في جميع جوانب حيواتهم السياسية والاجتماعية والفكرية .

وعلى الرغم من إقامة القوط دولة لهم في إسبانيا تتوافر فيها قوى سياسية وعسكرية تعد من أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الميلادي ، إلا أن هذه القوة كانت بيد الطواغيت والجبابرة الذين اعتمدوا البطش والمهاجمة والتهديد بغير حق ، الأمر الذي حال دون تحقيق التقدم والازدهار وتأمين الحياة الكريمة لشعبها المضطهد البائس ، كما لم يمنحها القدرة على ترسيخ أركانها أو المحافظة على بقائها وثباتها أمام أحداث الحياة المختلفة ، فالقوة المتمكنة التي لا تحكمها مثلٌ عليا ولا توجهها عقيدة ولا تضبطها ضوابط أخلاقية إنسانية رفيعة ، تتحول إلى قوة مستبدة وعدوان غاشم سرعان ما تنهار أمام الاستقامة والعدالة وسمو العقيدة وصلاحية المنهاج وأصالة الفكرة وصدق النظرة وغيرها من المعاني والمفاهيم السامية التي حملتها جيوش الفتوحات العربية الإسلامية [1]، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام في أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، وأقبل الناس عليه بما يحمل من تعاليم وقيم سامية وأخلاق رفيعة.

[1] ينظر الحجي . عبد الرحمن علي ، التاريخ الأندلسي ، دار القلم ، دمشق ،ط: 3 ، 1987م : 29 –34

أولا- الفتح الأندلسي وعصر الولاة

1- الفتح الإسلامي في الأندلس:

استطاعت الفتوحات الإسلامية إتمام فتح شبه الجزيرة الإيبيرية في أربع سنوات (92 – 96هـ/ 711-714م)، وكانوا قلة يحاربون جيشا عسكريا كبيرا يفوقهم عددا وعدة في أرض جديدة ما خبروها وما عرفوها، بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، حيث كان موسى بن نصير والي الشمال، وكان قد اقترح على الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين في دمشق فتح الأندلس فقام بإرسال سَرِيَّة استكشافية إلى جنوب إسبانيا بقيادة طريف بن مالك ، مازالت تعرف باسمه إلى اليوم (جزيرة طريف)، وبالفعل أرسل موسى بن نصير طارق بن زياد على رأس جيشٍ وصل تعداد أفراده إلى نحو 7,000 رجل معظمهم من البربر. وقد عبر طارق بن زياد وجيشُه المضيق، وسمي باسمه كما سمي المضيق باسمه أيضا [1].

وتعد معركة برباط (92 هـ) في هذه المرحلة معركة فاصلة ، إذ نصر الله جيش المسلمين نصرا مؤزرا ، ومكّنهم من تشتيت الجيش القوطي ، ومنّ عليهم بغنائم كثيرة رغم تفوق القوطيين على إمكاناتهم مرات كثيرة في العدد والعدة و التنظيم والتدريب ، فضلا عن قتالهم في أرض يعرفون جغرافيتها ودروبها ومداخلها ومخارجها ، ومن بلد يحفظون أدق تفاصيله ، لكنهم ولّوا الأدبار أمام الجيش الإسلامي الذي تفوق عليهم بالروح المعنوية العالية والعقيدة القوية والإيمان المتدفق ، متعاليا على منافع الحياة الزائلة ورغبات الدنيا الفانية[2].

لم يكن الفتح سهلا أو هينا، إذ انتصر المسلمون، وتمكّنوا من تشتيت الجيش القوطي، ورفع راية الإسلام ودخلت الأندلس في حوزة الدولة الإسلامية الكبرى.

---

[1] ينظر ابن عذاري . محمد المراكشي أبو عبد الله ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفي بروفنسال ، المكتبة الأندلسية 22 ، دار الثقافة ، بيروت 1980: 1/43-45

[2] ينظر المقري . أحمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت 2004 : 1/261

2- عصر الولاة (95-138 هـ/714-755م)

يمثل عصر الولاة في الأندلس التحول والانتقال إلى حياة جديدة، وامتدادا للجذور الإسلامية في المشرق العربي التي تفرعت وآتت أكلها في الشمال الإفريقي، فكانت الأندلس غالبا تابعة لولاية إفريقية[1].

ولعل اللافت للنظر كثرة الولاة الذين توالوا على حكم الأندلس وسرعة تغييرهم في سنوات قليلة ، فقد حكم الأندلس عشرون واليا خلال أربعين سنة، غير أن هذا التبدل السريع للولاة الذي من شأنه أن يثير القلاقل والاضطرابات في البلاد أبقى على خطة الفتح وجهته، فاشتدت وقويت حتى امتدت نحو الشمال الشرقي، ووصلت إلى ما وراء جبال البيرينيه أو البرانس في فرنسا[2].

وقد توقفت حركة الفتح عند هذا الحد بسبب ما شهدته فيما بعد من اضطرابات وعدم استقرار ، فضلا عن المنازعات والحروب التي أشعلتها كثرة العناصر المكونة للشعب الأندلسي من إسبان مختلفي الجنسيات ويهود وبربر وعرب .

من جهة أخرى خاف ملك فرنسا "شارل مارتن" والبابا من سقوط باريس، فعمل على توحيد قوى أوربا، فأعلناها حربا صليبية، جمعا فيها حشدا كبيرا لصد الزحف الإسلامي، فوقعت معركة بلاط الشهداء 114 هـ (في منطقة قرب بواتييه) انتهت بتراجع المسلمين عن فرنسا مع إبقاء مناطق لهم فيها.

– بالنسبة للأدب في هذه المرحلة، فكان قدرا ضئيلا فضلا عما نسي وضاع منه، ولكن ما وصلنا منه يعد البذور الاولى للأدب الأندلسي الذي سيزدهر بعد حين[3]، ويمكن أن يقال عن الشعر في هذه المرحلة أنه ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس، فقائلوه في الحقيقة مشارقة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح .

---

[1] البيان المغرب: 2/25-26

[2] ينظر نفح الطيب : 1/235

[3] ينظر هيكل .أحمد ، الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، مصر 1971م ،ط6: 61

ثانيا- عصر الإمارة الأموية (138-316هـ/755-929م)

انتهى عصر الولاة بإعلان عبد الرحمن الداخل نفسه أميرا على الأندلس، فبعد سقوط الدولة الأموية في الشام على يد العباسيين ، أمر الخليفة أبو العباس السفاح بتتبّع الأمويين وقتلهم لإبادتهم جميعا ، وقد استطاع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان(الداخل) أن يفلت من قبضتهم ويهرب متخفيا إلى المغرب الأقصى عند أخواله ، حتى إذا استقر به المقام بدأ يعد العدة لدخول الأندلس دخول الملك الفاتح لا دخول الشريد الطريد ، وبه ابتدأت الإمارة فيها ولم تعد تابعة للخلافة العباسية الإسلامية [1].

استطاع الداخل ومن جاء بعده إخماد النزاعات والصراعات بين القبائل العربية من جهة ، وبين البربر والعرب من جهة أخرى، وأخذت البلاد تتجه نحو إتمام الفتح وتأمينه وتأصيل قواعده وتثبيت هيبته.

أما إسبانيا الشمالية فقد أغارت على أراضي المسلمين، فسارت حملات عدة نحو الشمال الإسباني لرد العدوان وتأديب حكام إسبانيا، ورغم ذلك كانت هذه الحملات كثيرا ما تنتهي بعقد صلح أو معاهدة يتفاوت أمدها وشروطها، غير أن الإسبان لم يلتزموا بعهد أو يأخذوا بعرف ، بل كانوا يستغلون كل فرصة للنيل من الأندلس الإسلامية التي طالما التزمت بعهودها ، وأخذت بالسلم أصالة في كل الظروف ، سواء أكان في ضعفها وانشغالها أم في قوتها وتمكّنها[2].

وتشاهد هذه المرحلة أولى خطوات الأندلس نحو أدب أندلسي متميز ، ففيها نشأ أول جيل من أدباء وأديبات الأندلس، وأخذت تتبدى الشخصية الأندلسية بموضوعات جديدة تتناسب والحياة الجديدة بكل ما فيها من اختلاف في الطبيعة الجغرافية وفي العلاقات البشرية وكذلك العاطفة الإنسانية، ولعل شعر عبد الرحمن الداخل يمثل هذه المرحلة، حيث يفيض عذوبة ورقة ويشف عن ألم دفين من الغربة والحنين إلى الشام ، المفعمة بالذكريات ، قال[3] :

---

[1] ينظر البيان المغرب : 2/40-41

[2] ينظر التاريخ الأندلسي: 244-245

[3] ينظر الأدب الأندلسي:81

أيها الراكب المُيَمِّمُ أرضِي أَقْرِ من بعضيَ السلام لبعضِي

إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قدَّرَ البَيْنُ بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غَمْضِي

قد قضى الله بالفِرَاق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضِي

لقد جمعت شخصية الداخل جوانب ثلاثة، جانب إنساني وسياسي وعسكري، ولكن ما وصل إلينا من شعره هو النذر اليسير، لكنه استطاع أن يكشف عن بعض ملامح شخصيته العظيمة.

ثالثا- عصر الخلافة الأموية (316-400هـ/929-1009م)

كانت الأندلس في أواخر عهد الإمارة تعاني من قلق وتمزّق داخلي، وقد تنبه الأمير عبد الله بن محمد الأول – آخر الأمراء الأندلسيين – إلى ما آلت إليه أحوال الأندلس ، ولاسيما بعد مقتل ابنه ولي العهد، لذا أولى حفيده عبد الرحمن بن محمد عناية خاصة وعدّه إعدادا مميّزا ليرثه في حكم الأندلس من بعده.[1]

ولم يخب ظن الجد بحفيده ، فما إن تولى عبد الرحمن الناصر الحكم حتى استنّ سياسة الحزم والقوة والتضحية، فخمدت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس في طاعته أفواجا، واستطاع أن يقضي على العصاة عامة، وعلى ثورة ابن حفصون خاصة، ويعيد للأندلس وحدتها وقوتها، الأمر الذي جعله يعلن نفسه خليفة المسلمين ويتلقب بأمير المؤمنين، لا سيما وأن الخلافة العباسية لم يعد لها وجود في المغرب بعد أن قامت الدولة الفاطمية في القيروان قبيل حكمه بقليل، واستطاع الخليفة الاستيلاء على سبتة بإرسال قوة بحرية من أسطوله، فامتد نفوذه إلى فاس[2].

[1] ينظر البيان المغرب : 2/155-156

[2] ينظر المصدر نفسه : 2/ 171- 196 ، 223-242

وبهذا استطاعت الخلافة الأندلسية إقامة أعظم حكومة في قرطبة شهدتها الأندلس في عهودها المديدة ، واستحقت أن تسمى هذه المرحلة من تاريخ الأندلس بالعصر الذهبي.

وتعد شخصية عبد الرحمن الناصر من أبرز شخصيات هذا العصر، فقد جمع صفات البطولة من جميع جوانبها الخلقية والسياسية والعسكرية، ويكفينا ما جاء من شعر شاعره ابن عبد ربه لنتبين صفاته البطولية الحقة .

وحين خاض الناصر معاركه وغزواته بشجاعة وإقدام محققا الانتصارات والفتوحات، كانت أولى غزواته هي غزوة "المنتلون " افتتح فيها سبعين حصنا، قال ابن عبد ربه مهنئا [1]:

قدْ أوضحَ اللهُ للإسلامِ منهاجًا وَالنَّاسُ قَدْ دَخَلُوا في الدِّينِ أَفْواجا

وقد تزينتِ الدنيا لساكنها كأنما أُلبِستْ وشياً وديباجا

لقد كان الناصر ذا شخصية متوازنة ، جمعت في قلوب رعيته بين شعور الخوف منه والمحبة له ولكرمه وعطاياه، وقد صور لنا ابن عبد ربه ذلك بقوله[2] :

طلعتَ بين النَّدى والبأسِ مبتهجاً هذا بيُمناكَ بل هذا بيُسراكا

والناسُ يَدْعون والآمالُ راغبةٌ والطَّوعُ يرجوك والعصيانُ يخشاكا

وبهذه السياسة الحكيمة القوية حكم الأندلس زهاء خمسين عاما، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام قاطبة، جمع فيها وحدة الأمة ووحدة السلطة معاً .

وفي هذا العصر تكاملت للأندلس شخصيتها السياسية، وتوالى على الحكم رجال أكفاء، مثل الحكم المستنصر والحاجب المنصور ابن أبي عامر وغيرهما، وتعد معركة "شانت ياقب" أو"سانت يعقوب" من

---

[1] ابن عبد ربه . أبو عمر أحمد ، ديوان ابن عبد ربه ، تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1979: 35-36

[2] المصدر نفسه : 128

أهم وأعظم معارك الحاجب المنصور، والتي بلغت قرابة أربع وخمسين غزوة لم يهزم فيها قط، فكان يأمر غلمانه بتنظيف ثوبه وأخذ ما علق به من غبار المعارك والغزوات، لتدفن معه في قبره فتكون شاهدا له عند الله يوم القيامة بجهاده في سبيله .

وتأتي أهمية هذه المعركة في وجود قبر يعقوب الحواري فيها، إذ كانت تمثل العاصمة الروحية الدينية لنصارى أوربا قاطبة، كما كانت من أمنع بلاد النصارى لوعورة طرقها وخطورة مفاوزها وصعوبة اجتيازها بالجند، ومن هنا ندرك سبب حرص المنصور على حملته هذه، لكسر شوكة الإسبان وتحطيم أسطورة سانتياجو الحربية .

ولعل الصورة التي أتى بها الشاعر ابن درّاج توضح ذل أعداء المنصور أمامه راجين عفوه وسماحه ، فقال[1] :

لما انتضيتَ سناها في مفارقِهم خرَّتْ سجودا لك الأعناقُ والقممُ

وأوجهٌ عفَّروها التُّرْبَ خاضعةً كأنَّ كلَّ جبينٍ منهمُ قـدمُ

فبعد انتصار المنصور، خضعت له الأبطال والفرسان أذلة أمام عظمته وبطولته، وتعفرت وجوه ملوكهم وجباههم في التراب، وهم يرجون عفوه وغفرانه.

لقد كان المنصور من أفضل حكام الأندلس، وعصره يعد أفضل عصورها قاطبة، حيث انتهت إمارات إسبانيا إلى حال يرثى لها من التفكك والضعف، استمرت زهاء ثلث قرن، وامتد أثره بعد موته ليعيش مَن بعده بأمن ودعة ورخاء كما كانوا أبّان حياته.

رابعا – عصر ملوك الطوائف(400-484 هـ/1009-1091م)

[1] ابن دراج . أحمد بن محمد القسطلي ، ديوان ابن دراج ، تحقيق محمود علي مكي ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1961 :405

لم يدم استقرار الأندلس وتوحّدها وقوتها طويلا، فما أن انتهى عهد الخلافة الأندلسية بانتهاء حكم أسرة بني عامر حتى عانت الأندلس من فتنة طاحنة، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين وتفككت وحدتهم وتصدّعت قوتهم وأهدرت قيمهم، ومن أهم أسباب ذلك أن السلطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين من جهة، وبينهم وبين الحكام البربر من جهة ثانية، كما دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء المسيحيين، فكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية، الأمر الذي أدى إلى تصدع بنيان الأندلس إلى ولايات ومدن متباعدة متخاصمة سميت دول الطوائف، حيث قامت كل طائفة أو عائلة بارزة بإعلان الاستقلال في مدينة من المدن وما يحيط بها حتى بلغ عددها عشرين إمارة ما لبثت أن انضمت إلى ست مناطق رئيسية، منها : دولة بني عباد في إشبيلية، ودولة بني جهور في قرطبة، و دولة بني الأفطس في بطليوس[1].

ولم يكتف ملوك الطوائف بتفرقهم واستقلال دويلاتهم بل تنازعوا فيما بينهم، وراحوا يستعينون بعدوّ أمتهم يدفعون له الإتاوة أو يقدمون تنازل عن حصون ومدن وقواعد أندلسية، بسبب أطماعهم في الحكم وانغماسهم في الترف .

وهكذا اشتد ساعد إسبانية النصرانية وقويت واستطاعت أن تنتزع طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة[2]. ولعل اللافت للنظر وقوف ملوك الطوائف جامدين لا يهرعون لنجدة طليطلة، متغافلين عن حقيقة ألفونسو الذي لا يفرق بين طليطلة وغيرها من قواعدهم الأندلسية، وفيهم قال الشاعر أبو الحسن بن الجد [3] :

أرى الملوكَ أصابتهم بأندلسٍ دوائرُ السّوءِ لا تُبقي ولا تذرُ

ناموا وأسرى لهم تحتَ الدّجى قدرٌ هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

---

[1] الباشا. مهجة، سقوط الأندلس، دار شراع، دمشق2003: 59

[2] ينظر التاريخ الأندلسي : 326

[3] ابن بسام . أبو الحسن علي الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، لبنان بيروت ، 1979 : 3/256-257

وكيف يشعر من في كفِّهِ قدحٌ تحدو به مذهلاتُ الناي والوترُ

صُمَّتْ مسامعُهُ عن غيرِ نغمتِهِ فما تمرُّ به الآياتُ والسورُ

لكن هذا العصر لم يخل من إشراقات وضّاءة، إذ ظهرت حركات جهادية بقيادة رجال أفذاذ، منهم العلامة القاضي الفقيه أبو الوليد الباجي الذي ترأس دعوة التوحد وإعادة الشمل، مهدّت لفكرة الاستعانة بالعدوة المغربية على يد المعتمد بن عباد.

كان بنو عباد أمراء إشبيلية أهل حنكة سياسية ودهاء، ولعل أبرزهم هو المعتمد بن عباد الذي أكمل مسيرة أبيه المعتضد وأبقى مملكة إشبيلية أقوى الممالك وأعظمها، غير أنه تميز عن أبيه بأخلاقه الحميدة وعاطفته الجياشة، إذ استطاع أن يجمع بين صفات اللين والسماحة والتواضع من جهة وصفات القوة والحزم والعزم من جهة أخرى، إلا أن عاطفته وشاعريته غالبا ما كانت تغلب عليه، لذلك وقع في هوى الرميكية اعتماد، التي تزوج منها وأصبحت تُعرف بالسيدة الكبرى، وقد أخلص في حبه لها طيلة حياته، وبعد مماته دفن إلى جانب قبرها في أغمات[1].

وقد نظم فيها أبياتا جعل كل بيت من أبياتها يبدأ بحرف من حروف اسمها (اعتماد) منها [2]:

أغائبةَ الشَّخْصَ عَن ناظري وحاضرةً فِي صميم الْفُؤَادِ

عَلَيْك السَّلَام بقدْر الشجون ودمع الشؤون وَقدْرِ السّهادِ

تملّكت مني صَعب المرام وصادفت مني سهل القيادِ

ولما كان بنو عباد أهل علم وأدب وفن، كان بلاطهم يغص بأقطاب العصر وشعرائه، الأمر الذي جعل مملكة إشبيلية تتمتع بحضارة زاهرة وثقافة رفيعة، فعمدوا إلى تكريم أهل العلم والأدب تكريما بالغا،

[1] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :57

[2] ابن الأبار.محمد بن عبدالله القضاعي،الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف،القاهرة 1985 : 61/2

لاسيما الشعراء الذين نالوا نصيبا وافرا من الهبات والمناصب الرفيعة في الوزارة، أبرزهم ابن زيدون وابن وهبون وابن عمار .

واستطاع المعتمد بن عباد أن يضم إلى إشبيلية قرطبة التي طالما كانت حلما يراود أباه وجده. كما عني عناية كبيرة بإعداد قواته العسكرية البرية والبحرية، ولقن الفرنجة دروسا في العزة والكرامة والأنفة، حين قضى على سفراء ملك قشتالة الذين أساؤوا الأدب مع وزيره ابن زيدون ورجاله، فصلب رئيسهم اليهودي، وألقى فرسانه في السجن، الأمر الذي جعل ألفونسو يعيد للمعتمد بعض حصونه القريبة من قرطبة.

حينها أدرك المعتمد فداحة الأخطاء التي تردى فيها بمصانعة ألفونسو ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف ، ففكر عندئذ ولأول مرة أن يستنصر بعدوة المغرب، فكتب إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئه بما آلت إليه أحوال الأندلس، ويلتمس إليه الإنجاد والعون، وبالفعل تدخلت الدولة المرابطية لحل الأزمة الأندلسية، وكانت معركة الزلاقة الشهيرة، وتحقق النصر المبين والظفر المرتقب.

غير أن ملوك الطوائف عادوا إلى سائرعهدهم في الانغماس باللهو والملذات، ولم يلتزموا بوصايا ابن تاشفين، لذا عزم ابن تاشفين في جوازه الثاني للأندلس أن يقضي على ملوك الطوائف، فلاحقهم وقتل منهم وأسر، وكان نصيب ابن عباد أن يؤخذ أسيرا إلى أغمات، وحين هوجمت إشبيلية من قبل المرابطين، وأرادوا القبض عليه، خرج بقميصه بكل شجاعة وإباء من دون درعٍ يحميه قائلا أبياته المشهورة [1]:

قد رُمْتُ يـوم نِزالهم ألا تُحصِّنَنـي الـدّروعْ

وبرزت ليس سوى القميـ ـصِ على الحشا شيءٌ دَفُوعْ

وبذلت نفسي كي تسيـ ـل إذا يسيل بها النَّجِيـعْ

[1] ديوان المعتمد بن عباد : 88-89

وهكذا سيق المعتمد أسيرا إلى أغمات، حيث قضى ما بقي من عمره ومات ودفن هناك، وقد رثى نفسه بأبيات قال فيها [1] :

قبرَ الغريب سقاك الرائح الغادي حقًّا ظَفِرتَ بأشلاء ابن عبادِ

وعلى الرغم من هذه النهاية المأساوية للمعتمد بن عباد إلا أنه احتفظ بمنزلة لم يحظ بها غيره من ملوك الطوائف، فقد نال أخف العقوبات التي وقعت عليهم إثر حكم علمائهم وفقهائهم.

[1] ا ينظر المراكشي . عبد الواحد ،المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، مطبعة بريل ، لندن 1881 : 120

المحاضرة الثانية:

تاريخ الأدب الأندلسي (2)

نواصل الحديث عن تاريخ العصور الأندلسية ، فقد كان سقوط طليطلة وعدد من المدن والحصون حولها إيذانا بسقوط أول حجر من الصرح الشامخ ، وتمهيدا لسقوط الأندلس نهائيا ، كما أظهرت تقصير ملوك الطوائف نتيجة انحراف وتعسّف سياساتهم ، ولولا أن قيّض الله للأندلس دولة إسلامية قوية ، في الشاطئ الآخر من المضيق ، في عدوة المغرب تقدمت لحماية الأندلس وإنقاذها من سوء الحال ، لكانت الكارثة أكبر . تلك هي دولة المرابطين التي أعانت الأندلس في محنتها وألحقتها بسلطانها ، فكانت نهاية عهد الطوائف وبداية عصر المرابطين.

خامسا- عصر المرابطين (484-520هـ/1092-1134م)

بينما كانت أحوال الأندلس تزداد اضطرابا وتمزّقا وضعفا، كان المغرب الأقصى يمضي نحو التوحّد والقوة والتمكين متمسكا بالعقيدة الإسلامية، يتطلع إلى مصلحة الأمة عامة من دون المصالح الفردية، فقد تنازل الزعيم اللمتوني أبو بكر بن عمر عن الحكم لابن عمه يوسف بن تاشفين بعد أن وجده أكفأ منه في إدارة الأمور وحسن السياسة في المغرب[1].

عرفت الدولة المرابطية منذ نشأتها بأنها دولة عسكرية مجاهدة، عُني ابن تاشفين بالجيش عناية فائقة، كما طور أساليب الجيش في القتال وتنوعت أسلحته ومعداته، وإثر الأحداث السابقة وطلب الأندلسيين النجدة من المرابطين، لبّى يوسف بن تاشفين النداء بعد استشارة فقهاء المغرب وأعيانِه، وجرت مراسلات بين الطرفين، وأرسل ابن تاشفين_ عملا بأحكام السنة _ إلى ألفونس السادس يعرض عليه الدخول في

[1] ينظر الصلابي . علي محمد ، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، دار المعرفة ، بيروت ، ط: 3/ 2009 : 67-73

الإسلام أو الجزية أو الحرب فكانت معركة الزلاقة، التي حقّق المسلمون فيها نصرا ساحقا، ألحق بالقشتاليين خسائر فادحة[1].

غير أنه سرعان ما زالت نشوة النصر، وعادت شهوة الحكم إلى نفوس الأمراء الأندلسيين أشد ما تكون من قبل، فدعا فقهاء الأندلس وعلماؤها إلى طلب رجوع ابن تاشفين لتوحيد الأندلس وإنقاذها من ملوك الطوائف وضمّها إلى المغرب، وبالفعل سقطت ممالك الطوائف كلها في يد ابن تاشفين الذي توفي سنة500 هـ بعد أن ولّى الحكم لابنه علي الذي سار على نهج أبيه في الإصلاح والجهاد فكان شجاعا مقداما، عبر البحر إلى الأندلس مرارا يتفقد شؤونها ، ويقود الحملات ضد أعدائه الإسبان، وأهمها معركة أقليش سنة501 هـ، ويعدُّ انتصاره هذا ذروة انتصار المرابطين في الأندلس .

– غير أن طالع المرابطين بدأ يغرب شيئا فشيئا، وبدأ الإسبان توحيد صفوفهم والتقدم في الأراضي الأندلسية مرة أخرى، وكانت قد برزت في مراكش حركة الموحدين التي استفحل أمرها بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين، فلم يخلفه في الحكم من هو أهل لذلك ، الأمر الذي دفع بالمرابطين إلى الانحدار والسقوط سنة540 هـ.[2]

– من الناحية الأدبية لم تكن عناية الدولة المرابطية بالأدب عامة والشعر خاصة عناية بني عباد، إلا أن هذا لا يعطي الصورة كاملة عن مدى النشاط الأدبي والفكري الذي شهده هذا العصر بعيدا عن البلاط المرابطي، فهناك المؤلفات الدينية والتاريخية والعلمية، قد نشأت مستقلة بفضل الدفع الحضاري الكبير لهذا العصر. ومع ذلك كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عند جوازه إلى الأندلس، يفتح أبوابه أمام الشعراء الذين كانوا يرونها فرصة تغنيهم عن الارتحال ومشاقه[3].

---

[1] ينظر نفح الطيب : 4/361-362

[2] [2] ينظر برّو . توفيق ، التاريخ السياسي والحضاري العباسي والأندلسي ، مديرية الكتب الجامعية ، حلب ، 1989: 218

[3] عباس . إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، دار الشروق ، عمان ط2،1997م : 60-62

ولما كان شعر المدح يرتبط بالكسب عامة، فقد ضعف وقلّ لأسباب تعود إلى ما عرف عن يوسف بن تاشفين من زهد يذكّر بزهد عمر بن عبد العزيز، وانشغاله معظم الوقت في الجهاد، وكذلك مكانة الفقهاء ودورهم في تسيير أمور الدولة المرابطية الذي جعلهم ينافسون الشعراء ويسدّون الباب أمام تواجدهم في بلاط أمير المسلمين، إذ كان تخصيص وقت لمجالس الشعر يعدّ ترفا لا تسمح به الظروف، ومع ذلك نجد مدائح قيلت في ابن تاشفين فيها كثير من الصدق والعاطفة والإعجاب، من ذلك قول أبي بكر بن سوّار حين شبه تقواه بتقوى النبي يوسف عليه السلام، وجعل أعماله العظيمة يعجز عنها التحديد والتشبيه[1]:

ملكُ الملوكِ وما تركتَ لعاملٍ عملاً من التقوى يشارك فيهِ

يا يوسفَ ما أنت إلا يوسفٌ والكلُّ يعقوبٌ بما يطويهِ

لقد حظي ابن تاشفين بتأييد شعبي حافل، إذ أحبه الأندلسيون ووثقوا بسياسته الرحيمة وبإدارته الحسنة، فقد استطاع أن يعيد للأندلس روحها وامتدادها أربعة قرون أخرى بعقل راجح ويد من حديد .

سادسا – عصر الموحدين (520-620هـ/1145-1223م)

ظهرت في المغرب الأقصى جماعة من المسلمين ساءها انصراف عدد من علماء المغرب إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه، لذا أخذت على عاتقها الدفاع عن الفهم الواضح الصحيح بالعودة إلى القرآن والسنة، والدعوة إلى صفاء العقيدة بإزالة كل ما يشوبها ويعكر صفاء التوحيد، وأطلقت على نفسها اسم " الموحدون " ، تزعمها محمد بن تومرت ، وبعد وفاته خلفه عبد المؤمن بن علي الذي اتخذ في دعوته الشكل المسلّح ، وخاض مع جيوش المرابطين حروبا طويلة انتهت بإعلان قيام الدولة الموحدية[2].

---

[1] الخطيب . لسان الدين ، الإحاطة في معرفة أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2، 1973 : 306/4

[2] ينظر الخطيب . لسان الدين ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تح : أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1964 : 266-271

أما في الأندلس فقد ضعف المرابطون وكثرت الفتن والثورات وأشهرها ثورة ابن مردنيش وصهره ابن همشك في مرسية شرقي الأندلس، في حين قامت مملكة البرتغال في غربيها واشتد ساعدها، الأمر الذي شكّل خطرا جديدا على قواعد الأندلس الغربية [1].

وكان الموحدون منشغلين بحلِّ مشكلاتهم وتثبيت سلطانهم في المغرب، فما إن استتبت أمورهم حتى بدأ أميرهم يوسف بن عبد المؤمن بإعداد الجيش للجهاد ومحاربة النصارى، فنظم عدة غزوات ضدهم، حقّق فيها نجاحات رائعة، واضطر النصارى بعدها إلى عقد هدنة حتى عاد الأمن والسلام إلى بطليوس وما حولها، غير أن البرتغاليين والقشتاليين عادوا إلى سابق عهدهم في نقض العهود والمواثيق، الأمر الذي حضّ خليفة الموحدين يعقوب المنصور على تنظيم جيش كبير هائل وعبور الأندلس متأهبا للجهاد، وانضمت إليه الجيوش الأندلسية والمتطوعون من كل مكان، فكانت معركة الأرَك سنة591 هـ التي انتصر فيها المسلمون نصرا حاسما، وأحيوا الدين في أندلس قرنين من الزمن[2].

وكان يعقوب المنصور بالفعل النموذج البطولي في ذلك العصر، وصفه ابن الخطيب بقوله : " نجم بني عبد المؤمن" ، وهو وصف استحقه بجدارة، إذ تجاوز دوره حدود التخطيط والتوجيه إلى المشاركة الفعلية في القتال ، فغدا قائدا ومقاتلا في آن واحد، وقد أكد شاعره ابن مُجبر ذلك بقوله [3]:

بعلاكمْ وهو حسبُ المطنبِ عرَفَ المشرقُ فضلَ المغربِ

فسّحَ الدّهرُ له حتّى رأى سِيَرَ ابنٍ وأبٍ بعد أبِ

فرعاها بفؤادٍ فطِنٍ وتلاها بلسانٍ معربِ

بعد معركة الأرك كُبِت ملك قشتالة، ونجت الأندلس من اعتداءاته مدة من الزمن، لكن سرعان ما أخذ يعد العدة للانتقام، ساعده في ذلك عددٌ من أقطار أوربا وكذلك البابوية التي دعت الرعايا لمؤازرة ملك

---

[1] ينظر البيان المغرب:219-220

[2] ينظر البيان المغرب: 220

[3] شعر ابن مجبر الأندلسي : 82

قشتالة بالأنفس والأموال مانحة الغفران التام لكل من لبّى هذه الدعوة وانطلق الجيش المنتقم للقاء جيش الخليفة الناصر، فكانت موقعة العِقاب سنة609 هـ، هُزم فيها المسلمون هزيمة ساحقة[1].

وبعدها توالت انتصارات الإسبان على المسلمين في الأندلس، وراحوا يُجرَّدونهم من مناطقهم الواحدة تلو الأخرى حتى سقطت كلّها عدا مملكة غرناطة، ومعها انتهى حكم الموحدين في الأندلس بعد مئة عام تقريبا.

سابعا – عصر مملكة غرناطة (635 – 897هـ/1238–1492م)

بعد سقوط الممالك الأندلسية الكبرى بسبب ضعف المقاومة الإسلامية أمام قوى إسبانيا النصرانية المتحدة من جهة، وعدم مقدرة الموحدين على حماية الأندلس من جهة أخرى، استطاع بنو الأحمر الدفاع عمّا بقي من بلادهم بتأسيس جبهة وطنية في غرناطة شملت ثلاث ولايات كبيرة : ولاية غرناطة في الوسط ، وولاية المريّة في الشرق ، وولاية مالقة في الجنوب والغرب[2] .

غير أنها استطاعت على ضيق رقعتها وقلة مواردها أن تؤجل سقوط الأندلس مدى قرنين ونصف، ساعدها في ذلك تقلّص الرقعة الإسلامية التي أدّت إلى هجرة الأندلسيين من مدنهم التي وقعت بيد الإسبان إلى مملكة غرناطة مما زاد من قوتها في جميع المجالات الحربية والمدنية، الأمر الذي أدى إلى رفع بني الأحمر شعار " لا غالب إلا الله " [3].

كما ساعدها في ذلك أيضا بُعدها الجغرافي عن موقع العدو من جهة، ووقوعها في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية من جهة أخرى، حيث البحر في جنوبها يشكل صلة الوصل مع الإخوة في المغرب الذين كانوا لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين، فكان بنو مرين أصحاب الدولة الفتية في عُدوة

---

[1] ينظر التاريخ السياسي والحضاري : 220–221

[2] ينظر التاريخ الأندلسي : 518

[3] ينظر الإحاطة : 119/1

المغرب مستمرين بواجب المرابطة والجهاد في الأندلس، وسرعان ما لبّى السلطان المريني دعوة بني الأحمر، إذ خاض معارك عدة من مثل معركة الدنونية ومعركة جيان وغيرهما[1].

ولا ننكر فضل الملوك العظام الذين توالوا على حكم غرناطة أمثال (أبي الوليد إسماعيل713) هـ (و أبي الحجاج يوسف الأول733) هـ (ومحمد الخامس الغني بالله755) هـ الذين استطاعوا أن يرتقوا بها درجة مرموقة من المجد والنهضة والانتصار على النصارى، فقد نعمت غرناطة خلال حكم السلطان الغني بالله محمد الخامس بأثر طيب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وسادها الرخاء و الاستقرار، وغدا عصر الغنى بالله عصرا مليئا بالسؤدد والرخاء، لم تشهده الأندلس منذ عصور، وساد الأمن والسلام[2].

وفيه قال ابن زمرك[3] :

لمقامـك التأييد والتأبيدُ ولك الملوكُ ما تشاء عبيدُ

ذو هيبةٍ في رحمةٍ وكلاهما للمسلمين محبَّب مودودُ

لقد سلك الغني بالله فى حكمه مسلك القوة والحزم، واشتهر بصرامته وعدله وحسن سياسته، والحق أنه اعتمد في سياسته على مبدأ قبول النصح والشورى، وخص وزيره لسان الدين بن الخطيب بهذا الجانب، وجعله الرجل الأول في الدولة بعد سلطانه.

ولعل تولي الأديب والكاتب والشاعر لسان الدين بن الخطيب منصب الوزارة واستئثاره في السلطة والنفوذ كان له الأثر الكبير في شهرة الغني بالله في الجهاد الحربي والإبداع الفني لدولة غرناطة الصغيرة.

ثم توالى على عرش الأندلس سلاطين غير أكْفاء أمثال محمد بن يوسف الملقب بالأيسر وغيره، فعصفت الحرب الأهلية والفتن والخلافات الداخلية وانقسمت المملكة الإسلامية الصغيرة إلى شطرين مما

---

[1] ينظر التاريخ الأندلسي : 519-520، 540

[2] ينظر الإحاطة : 1/ 540 وما بعدها.

[3] ابن زمرك . محمد بن يوسف الصريحي ، ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تح : محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1997م: 119

زاد ضعفها وعجل مصيرها المشؤوم، وسقط ثغر جبل طارق في أيدي الإسبان سنة867 هـ ، وبسقوطه انقطع طريق الاتصال بعدوة المغرب التي دخلت بدورها مرحلة الانحلال والضعف ولا سيما بعد أن قامت فيها دولة بني وطاس.[1]

لذا كان من البديهي أن يلتفت الأندلسيون إلى المشرق الذي كان يشهد نهضة جديدة وقوة عسكرية غالبة عند المماليك في مصر، الأمر الذي جعل رسل الأندلسيين تتوافد إلى المشرق مستحثة الهمم، من مثل رحلة إلى القاهرة عند السلطان قايتباي ورحلة أخرى إلى الظاهر جقمق، طلبوا منه النجدة ، وناشدوه ألا يردهم خائبين، غير أنه اعتذر منهم معللا أن بلادهم بعيدة ويصعب تجهيز عسكر لها، ولعله أمدّهم بالمال والعدّة ، فلم تكن لتنفعهم النفع المغني الذي يغير مجرى الأحداث، ولم يأت الإسعاف إلى الأندلس من الدولة العثمانية ولا من أي كتل إسلامية جنوبا أو شرقا ، فقُطعت أجنحتها وتُركت فريسة للإسبان .[2]

ومع ذلك برزت حركات جهادية بقيادة فرسان رفضوا الاستسلام والخضوع للنصارى، منهم موسى بن أبي غسان، الذي عارض أبا عبد الله الصغير في تسليم الحمراء، فخرج على رأس جيشه مقاوما حتى آخر رمق بقوله : "إنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها " لكن كلماته لم تجد صداها في رجال نضب الأمل في قلوبهم، ووصلوا إلى حالة من اليأس، فبقي وحده في الساحة حتى استشهد[3].

استسلم أبو عبد الله الصغير، وسلّم مفاتيح الحمراء للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا سنة897 هـ مقابل عقد صلح لم يفيا بشروطه، بل بدأا سياسة الاضطهاد والحرمان للشعب الأندلسي، وخيّرا أهل مملكة

---

[1] ينظر نفح الطيب : 4/512-514

[2] ينظر مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة ، آخر أيام غرناطة ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط/2 ،2002: 124-128

[3] ينظر عنان . محمد عبدالله ، دولة الإسلام في الأندلس ، مكتبة الأسرة مع الهيئة العامة ، 2003 ، ج 7 : 238-241

غرناطة بين التنصر أو الإعدام، ولما أبوا واعتصموا في الجبال أرسلا لهم جيشا مزّقهم شرّ ممزق، وعمّت محاكم التفتيش التي نال منها المسلمون ألوانا من العذاب، يعجز عن وصفه البيان[1].

وهكذا طويت قصة الأندلس بمحاكم التفتيش التي سوَّدت بقضائها الظالم وقراراته المروعة صحف التاريخ الإسباني، حاولت خلالها إبادة الإسلام وانتزاعه من نفوس المسلمين بالقتل والتهجير والتنصير، متناسية العهود التي وعدت بها من أحسنوا إليها يوم فتحوا هذه الأرض بسلام، فلم يجبروا أحدا على ترك دينه أو يمنعوه من ممارسة شعائره ، ولم يحرقوا كنيسة واحدة، أو يمزقوا إنجيلا واحدا . فهكذا عاملوهم وبهذا عوملوا.

مرحلة ما بعد الرحيل : هناك مرحلة كثيرا ما تنسى من عمر الأندلس ، وهي مرحلة الموريسكيين التي تتناول– عهد ما بعد الاندحار، وتبدأ بسقوط غرناطة وما تلاها من أحداث جسام، وما آل إليه أمر مسلمي الأندلس من مهانة وتشريد وإجبار على التنصر ونقض المواثيق.

---

[1] ينظر نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، مجهول المؤلف ، ضبط وتعليق : الفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد / الظاهر 2002: 42–44

المحاضرة الثالثة

الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية

حين فتح العرب إسبانيا لم يكن بها تراث حضاري لا مادي ولا معنوي ، وكانت الحياة أقرب إلى البداوة، وكان القسم الذي تركه العرب للمسيحيين في الشمال قسما جبليا شديد الوعورة يعيش أهله حياة قاسية ، وأما القسم الذي شغله العرب والبربر (الأندلس) فظلوا يعيشون فيه زمن الولاة معيشة قبلية بدوية، ولم يعرفوا شيئا من التحضر إلا في عصر الإمارة حين استقرت الأمور ، أما في عهد عبدالرحمن الأوسط (206-238هـ) فقد كانت الأندلس تسعى بقوة إلى استيراد حضارتها المادية والمعنوية من المشرق ، يقول ابن سعيد في ترجمته بكتاب المغرب : " في أيامه أدخل الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب ... ، ووافق زمنه انتهاب الذخائر التي كانت في قصور بغداد عند خلع الأمين فجلبت إليه .."[1] ، وتبعه أهل قرطبة والأندلس في عنايتهم بنفيس الرياش والفرش وأدوات الزينة ، وهو أول من أنشأ بقرطبة دار الطراز لصبغ المنسوجات الفاخرة ، ثم تكاثرت بعده دور الطراز بكل بلدان الأندلس ، ويقول الإدريسي إنه رأى بمدينة المرية ثمانمائة دار طراز للحرير تصنع فيها الحلل والثياب والستور والبسط ، وأخذت تزدهر سريعا صناعات الحلي والأواني والتحف المعدنية والفضية والبرونزية [2].

وفي أيام عبدالرحمن الأوسط وفد المغني زرياب غلام إسحق الموصلي ، فاحتفل به احتفالا كبيرا ، وكان زرياب من أهم العوامل في نقل المجتمع القرطبي نحو تحضر واسع في المعاش والحياة الاجتماعية، إذ علم الناس الأكل بالملاعق والسكاكين وأدخل على أطعمتهم ألوانا جديدة لا عهد لهم بها ، واستن للمرأة الأندلسية آدابا فيما تتخذه من الثياب وهيأتها من تصفيفات الشعر وطيبها وعطورها وزينتها ، كما استن للرجال آدابا في تقصير الثياب وتضييق الأكمام وفي تسريحات الشعر ، فضلا عن التأنق بحياتهم وتأثيث

---

[1] ينظر المغرب في حلى المغرب:46/1

[2] ضيف.شوقي، من المشرق والمغرب بحوث في الأدب، الدار المصرية اللبنانية،القاهرة 1998: 148

منازلهم وضبط الذوق العام، كما أدخل الشطرنج إلى الأندلس ومنها إلى أوروبا، و(الشاه مات) بالعربية ما زالت مستخدمة في أوروبا والعالم إلى اليوم (Shahmat)[1].

وهكذا انتقلت الحياة في الأندلس إلى ركب الحضارة والتطور، حتى بلغت أوجها في بناء القصور، حيث نجد قصر الزهراء زمن عبدالرحمن الناصر ، والزاهرة في عهد المنصور ، وبقيت الحضارة المادية في الأندلس منتعشة حتى أواخر عصورها ، فنجد في دولة غرناطة قصر الحمراء الذي مازال إلى يومنا الحاضر، ولعل اللغة تقف عاجزة عن وصف روعته وأبهته وجماله وفنه .

وهذه الحضارة المادية التي ظلت في الأندلس طوال سبعة قرون تنعم بها سكان الأندلس من العرب والبربر والمسالمة (الذين اعتنقوا الإسلام) والمولدين (أبنائهم) والمستعربين (الذين ظلوا على دينهم المسيحي واتخذوا العربية لسانا لهم وأداة للترجمة عن أفكارهم)، وقد أخذت تسقط منها أسراب إلى قطالونية في الشمال الشرقي وإلى نبارة وأرجون وقشتالة ، وحين استولوا على المدن الأندلسية ، عاشوا مع هذه الحضارة قرونا ، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من بناء حضارتهم ، وبقيت هذه الحضارة تحيى عن طريق ما بقي فيها من أهلها سواء المدجنون (وهم من احتفظوا بإسلامهم وخضعوا للنصارى) ، والمورسكيون (وهم من تنصروا تنصرا ظاهريا أو حقيقيا) ، حتى إذا صدر قرار إخراجهم وطردهم من إسبانيا في مستهل القرن السابع عشر الميلادي فقدت كل صناعها المهرة إلا من كان قد تعلم على أيديهم من الإسبان .

ومن الفنون الأندلسية المهمة التي أثرت وما زالت تؤثر في الحضارة الإسبانية الحديثة فن الغناء والموسيقى ، وقد بدأ ازدهاره مع وفود زرياب ، ومما يؤكد الأثر الأندلسي الكبير فيهما الآلات الموسيقية الإسبانية المختلفة التي ما تزال تحتفظ بأسمائها العربية مثل العود والقيثارة والرباب [2].

وإذا ما انتقلنا من الحضارة المادية إلى الحضارة المعنوية أدبية وعلمية ، حيث تعربت الأندلس بكل ما فيها من عناصر وأطياف في القرن الثالث الهجري، وأخذت تشد عقول وألباب الشباب الإسباني الذي آثر

---

[1] ينظر نفح الطيب: 122/3

[2] من المشرق والمغرب: 152

اللغة العربية فراح يتعلمها ويتقنها ،الأمر الذي أقلق كبار الدولة النصرانية ورجال الكنيسة ، حتى نجد ألبيرو القرطبي يصرخ : " يا للحسرة إن الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها ، ..فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، يا للألم ، ...إنهم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا " [1].

هذه شهادة أو وثيقة بمدى ما حدث من تعرب المسيحيين وتفضيلهم العربية على اللاتينية . فضلا عما جاء به ابن خلدون من إشادته بتمكن العربية في الأندلس ، معللا ذلك بأخذهم النشء من أول العمر بتعلم القرآن وحفظه ورواية الشعر والنثر الجيد ومدارسة قوانين العربية ، يقول: " فأفادهم ذلك حصول ملكة صاروا بها أعرب في اللسان العربي "[2].

وقد سقطت بعض الألفاظ اللاتينية إلى العربية ولكن دون أن تسود على الألسنة ، ومما يؤكد ذلك ظهور هذه الألفاظ في الموشحات ، وهي نمط جديد من الفنون المستحدثة تتألف من خمس مقطوعات ، ربما زادت أو نقصت ، وكل مقطوعة تتألف من جزأين يسمى أولهما الغصن وهو عدد من الأشطر يشترك في قافية واحدة ، ويسمى الثاني القفل ، وتشترك الأقفال في قواف متقابلة ، والقفل الأخير يسمى الخرجة ، وهذه الخرجة قد تحمل لفظا عاميا لاتينيا .

وقد تفرع عن الموشحات فن آخر من الفنون الشعرية المستحدثة سمي بالأزجال ، والتي صاغ منها ابن قزمان ديوانه ، ومعروف أنها تصطنع العامية وتخلو من الإعراب خلوا تاما، لذلك نجدها تحمل ألفاظا لاتينية دارجة كثيرة، وتقترب من فن الموسيقا المصاحبة للغناء .

---

[1] ينظر بالنثيا.آنجل، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، د.ت:486

[2] ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون، تح: عبدالله محمد درويش ، دار يعرب، دمشق 2004 :125/3 وما بعدها

أما بالنسبة إلى الحركة العلمية في الأندلس ، فلا نصل إلى زمن عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر حتى تزدهر وتنشط ، واشتهر الحكم المستنصر بجمعه لنفائس الكتب ونوادرها ، وكان له في بغداد ومشق والقاهرة والإسكندرية موظفون يستنسخون له طرائف الكتب القديمة والحديثة ، واقتنى مكتبة ضخمة ، قيل : كان بها أربعمائة ألف كتاب ، وكان فهرسها يقع في أربع وأربعين كراسة ، وكان يزخر بالعلماء والدارسين والناسخين والمجلدين، وكانت قرطبة أكثر المدن الأوربية حضارة ونهضة علمية وأدبية، فيها سبعين مكتبة وتسعمائة حمام للجمهور ، وكان حكام قشتالة وما حولها من المدن المسيحية يقصدونها كلما احتاجوا إلى جرّاح أو طبيب أو مهندس[1] .

أما الفلسفة في الأندلس فقد نشطت نشاطا واسعا ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثاني عشر الميلادي ويشتهر فيه ثلاثة هم : ابن باجة وابن الطفيل الذي لم يبق من مؤلفاته سوى رسالته " حي بن يقظان" وهي قصة فلسفية، وابن رشد الذي اشتهر بشرح مؤلفات أرسطو وتعليقاته عليها ، وأفاد منها القديس توما الإكويني الإيطالي ، الذي اشتهر برده على الغزالي في حملته على الفلاسفة في كتابه تهافت التهافت ، ويعد ابن رشد أكبر فلاسفة الإسلام ، ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ، ودرّست في جامعات إسبانيا والجامعات الأوربية[2].

وأما علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد فهناك أسماء كثيرة لامعة مثل: ابن الإفليلي والزبيدي والبطليوسي ابن السيد، والمواعيني محمد بن إبراهيم، وابن شهيد وحازم القرطاجني وابن حزم وغيرهم.

وقد تحولت طليطلة منذ سنة 478هـ زمن ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى دار ترجمة كبيرة للعلم والفكر العربيين إلى اللهجة القشتالية واللغة الإسبانية الحديثة ، حيث ترجمت المصنفات العربية في العلوم والفلسفة: في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والفيزياء والتاريخ والمنطق والسياسة وعلم النفس ، ولم تترك تلك المدرسة كتابا مهما للخوارزمي والرازي وابن سينا والغزالي والزهراوي وابن رشد وغيرهم إلا وترجمته، وقد هرع إليها الطلاب والمثقفون من أنحاء إسبانيا وأوروبا يحاولون أن ينهلوا مما فيها من علوم

---

[1] من المشرق والمغرب : 164

[2] المرجع نفسه

عربية عامة وأندلسية خاصة ، وكان لهذه الترجمات دور فعال في التكوين الحضاري لإسبانيا وأوربا طوال قرون متعاقبة[1] .

وهكذا نجد كيف كان للترجمات دور فعال في التكوين الحضاري لإسبانيا وأوروبا طوال قرون طويلة، فقد ظلت إسبانيا الحديثة بما أخذته عن حضارة الأندلسيين تؤثر بها في أوربا كافة بجميع جوانب حضارتها إلى زمن بعيد.

---

[1] ينظر ضيف. شوقي، تاريخ الأدب العربي، الأندلس، دار المعارف، القاهرة2009: 59 وما بعدها

المحاضرة الرابعة:

تطور الشعر الأندلسي واتجاهاته

- الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

كانت تلك الفترة من تاريخ الأندلس فترة منازعات وحروب، ومجتمع مفكك، وأغلب الداخلين إلى الأندلس هم جنود وحكام، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات .

ولكن ثمة نفر من التابعين دخلوا الأندلس بصحبة الجند، بغرض الإفتاء في أمور الدين كتقسيم الغنائم وتحديد الضرائب وتفقيه الناس، وكانوا على حظ من المعرفة الدينية، وأغلب الظن أنهم أول من أسس المدارس الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغيرهما، فكانت الحياة الثقافية متواضعة لا تتجاوز حلقات في بعض المساجد القليلة آنذاك[1].

كما عرفت تلك الفترة قدرا ضئيلا من الأدب، حيث وفد نفر من الأدباء إلى الأندلس، فوضعوا البذور الأولى للأدب الأندلسي الذي ازدهر فيما بعد.

لم يكن هناك استقرار حقيقي، بل استمر الصراع نصف قرن بين العرب والبربر، حيث دخل العرب مع البربر في جيش موسى بن نصير، وعرفوا بالبلديين، وكانت الطالعة الأولى بقيادة بلج بن بشر من عرب وموالي، ثم حدث صراع بين الطالعة الأولى وبين البلديين، فأرسلت الطالعة الثالثة بقيادة أبو الخطار الكلبي لفض الصراع، وهذه الجيوش الثلاثة كانت مادة للوجود العربي فضلا عن البربر وعن الإسبان الذين كانوا مستوطنين في الأندلس.

[1] ابن القوطية. ، تاريخ افتتاح الأندلس:40-41

فنتج صراع بين المسلمين والإسبان، وبين المسلمين والفرنجة في فرنسا، وبين المسلمين والبربر، وبين العرب والعرب حيث انتقل الخلاف بين الأمويين والعدنانيين إلى الأندلس، وهذا التشدد للعصبيات القبلية أضعف العرب وأفسح المجال لتسلط الجماعات الأخرى[1].

ونتساءل هل بسبب الصراعات وعدم الاستقرار لم يكن هناك مادة أدبية غزيرة في تلك الفترة؟

الحقيقة أنه لا علاقة للأدب بالاستقرار، فالذين دخلوا الأندلس كانوا أدباء بطبعهم، قد تكون الحروب شغلتهم ومنعتهم عن البوح بمشاعرهم، وإما أنهم قالوا شعرا لكنه ضاع ولم يصلنا. وقد نجد في الأبيات التي وصلتنا شيئا عن هذه الفترة.

- كان من بين الوافدين أبو الأجرب جعونة بن الصِّمَّة ، قال:

ولقد أراني من هواي بمنزلٍ عالٍ، ورأسي ذو غدائرَ أفْرَعُ

والعيشُ أغيدُ ساقطٌ أفنانُه والماءُ أطيبه لنا والمرتَعُ[2]

ومن شعراء تلك الفترة كذلك أبو الخطار حسام بن ضرار، وكان من أشراف القحطانيين في الأندلس، وفد عليها واليا، وكان شاعرا فارسا، ساهم في الصراع بين قحطان وعدنان في الأندلس، من شعره:

فليت ابن جوّاس يخبّر أنني سعيتُ به سعي امرئٍ غير عاقلِ

قتلتُ به تسعين تحسبُ أنهم جذوع نخيل صرّعت في المسايلِ

ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفّي وما استثنيتُ منها أناملي[3]

خصائص الشعر في هذه الفترة:

---

[1] ينظر هيكل, أحمد، الأدب الأندلسي: 61

[2] ينظر ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب:132/1

[3] ينظر الحميدي. جذوة المقتبس:188

- ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس .
- لذلك هو شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذي كان شائعا في المشرق في ذلك الوقت، وأعلامه جرير والفرزدق.
- شعر يجري على تقاليد المدرسة المحافظة، فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة، ولا يُرى في معانيه كثير من تعمق الفكر والفلسفة، ولا يلمح في صوره نصيب من تحليق الخيال، إنما هو أميل إلى البداوة وأقرب إلى الخشونة.

- **<u>أولية الشعر الأندلسي</u>**

ضعفت العصبية القبيلة واتجه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية وصلت ذروتها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وذلك بفضل جهود عبدالرحمن الداخل ومن حكم بعده .

وكان من أهم ظواهر المجتمع ظهور طبقة اجتماعية جديدة في الأندلس ، تسمى طبقة المولدين، وتتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام، وكثروا بمضي الزمن واستمرار الدخول في الدين الجديد، فصبغت الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة ، ترتب عليها تقدم حضاري في الإنشاء والتعمير والتجميل ، فقد أسس عبدالرحمن مسجد قرطبة الجامع، وكذلك الرصافة مقر الإمارة في قرطبة، وغرس الحدائق الجميلة وجلب أنواعا من المزروعات المشرقية كما سنجد في شعره [1].

كان الشعر الأندلسي يسير في الاتجاه المدرسة المحافظة المشرقية ، ولكن مع سمات خاصة تشكل ملامح الشعر الأندلسي :

<u>أولا : اتجاه الشعر المحافظ</u>

سار الشعراء الأندلسيون على النهج المحافظ ، ولم يكن ذلك بدافع التقليد كما يظن كثير من الباحثين، وإنما ما اقتضته حياة الأندلسيين وواقع ظروفهم، ومثلهم وقيمهم، فظروفهم وواقعهم كانت تتطلب

[1] نفح الطيب: 336/1

الخوض في موضوعات تقليدية عرف بها الشعر المحافظ ، فالفخر والحماسة من لوازم الصراع القائم في حياة الأندلسيين.

والمدح كان من لوازم البيئة الأندلسية المطبوعة بالطابع العربي ، وخاصة حين كان حكامها يتخذون من الشعر أداة ترويج ووسيلة دعاية .

أما الغزل فهو مظهر من مظاهر البيئة العربية من جهة ، وأوساط الفرسان من جهة ثانية ، فشأن الفرسان أن يظهروا أقوياء أشداء في ميادين الحرب ، وضعفاء مستكينين في ميادين الحب .

وكان الأسلوب المحافظ الذي اتبعه الشعراء في موضوعاتهم التقليدية ، له تبريره من مُثُل الأندلسيين وقيمهم ، ذلك أن الشاعر العربي كان ينتقل من إقليم إلى آخر وفي مخيلته عالم مثالي، هو العالم الذي عاش فيه آباؤه الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجآذر والآرام إلى آخر هذه الخطوط التي تشكل البادية في أحسن صورها ، وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتبه آباؤهم في عالمهم الأسطوري ، وأن قصارى الأديب أن يأتي بما يشبه نتاجهم ، فراح الأندلسيون يستلهمون هذا العالم المثالي ، ويحاكون هذه النماذج التقليدية[1].

- **السمات الخاصة بالشعر الأندلسي المحافظ:**

1- التركيز العاطفي

وأوضح ما في هذا الشعر هو عنصر العاطفة ، حيث يغلب الشاعر الجانب العاطفي على كل الجوانب، وينقله إلى المتلقي نقلا قويا ، من ذلك قول عبدالرحمن الداخل ، فقد ظل الحنين إلى بلد المشرق يداعب خياله:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي

[11] الأدب الأندلسي: 85

إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي وساكنيه بـأرض

قدر البيـن بيننا فافترقنـا وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي[1]

- وقال لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة ونظر فيها إلى نخلة ذكرته وطنه :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلـةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرّب والنّوى وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن في صوبها الذي يسحُّ ويستمري السماكين بالوبل[2]

2- <u>التجديد الموضوعي والتجويد الفني</u>

ويعني محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون، وللأندلسيين وسائل مختلفة إلى هذا التجويد، منها ما يتعلق بالمضمون ومنها ما يتعلق بالشكل، وهذه السمة الفنية بدت في شعرهم منذ نشأته، وكانت من أوضح خصائص الشعر الأندلسي في كل العصور، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى آخر، ومن شاعر إلى آخر.

من ذلك أبيات أبي المخشي يعبر عن تجربة فقدان البصر :

خضعت أم بناتـي للعدا إذ قضـى الله قضـاء فمضى

ورأت أعمى ضريرا إنما مشيه في الأرض لمسٌ بالعصا

---

[1] نفح الطيب: 68/2

[2] البيان المغرب: 76/2

فبكت وجْدا وقالت قولة وهي حرّى بلغت منّي المدى

ففؤادي قرِحٌ من قولها: ما من الأدواء داء كالعمى[1]

فهذا موضوع جديد، لم يطرقه شاعر قبل أبي المخشي على النحو الذي وصف فيه عاهة العمى ومحنته، لاسيما وأنه لم يولد أعمى وإنما بسبب تعريضه بهشام بن عبد الرحمن، ومدح أخيه سليمان، استدعاه هشام وقطع لسانه وعطّل عينيه، فأصبح أعمى، وبدأت رحلة معاناته، فعبر عنها بإبداع وجودة .

وقد امتاز الشعر المحافظ في الأندلس بسهولة ألفاظه وسلاسة تراكيبه، فلم يحمل الشعراء الألفاظ مالا تطيق من المعاني المزدحمة، ويعود ذلك لسهولة طباعهم ولين أخلاقهم وإرسال القول من غير تكلف ولا تصنع، فلم يبالغوا بالأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها. أما معانيه فكانت واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء وبغض العامة لها. غير أنه غلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع الذي نشأ فيهم من ضروب الجمال، فأكثروا استعمال المجاز والكناية والتشبيه في شعرهم[2].

وبرغم دخول الاتجاه المحدث أو المجدد، فقد ظل الاتجاه المحافظ قويا ناميا، وظل كثير من الشعراء متمسكين به سائرين على تقاليده، لا سيما في الموضوعات الجادة كالمدح والرثاء والزهد، في حين اقترن الاتجاه المحدث بالموضوعات اللاهية .

ثانيا : الاتجاه المحدث أو المجدد

ونعني به هذا الاتجاه الذي سار فيه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأمثالهم من المجددين، وتزعمه أبو نواس ، حين ثار على الاتجاه التقليدي وندد بطريقته ، وراح يطرق أغراضا جديدة بمنهج جديد وأسلوب محدث [3].

---

[1] الإحاطة: 197/4

[2] الأدب الأندلسي: 91

[3] نفسه: 127

ولما كانت الأندلس دائمة الصلة بالمشرق ، أخذت هذا الاتجاه الجديد في الشعر ، حيث نُقل إليها في عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط على يد الشاعر عباس بن ناصح ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس.

ويتمثل هذا الاتجاه المحدث في العناية بأغراض شعرية لم تكن شائعة من قبل ، منها الخمريات، كقول يحيى الغزال:

ولمّا رأيت الشّربَ أكْدَت سماؤهم تأبّطتُ زقّي واحتبستُ عنائي

فلمّـا أتيتُ الحـان ناديتُ ربّـه فهبَّ خفيف الروح نحو ندائي

قليلَ هجـوع العيـن إلا تعلّـةً على وجلٍ منّي ومن نظرائي

فقلت أذقنيها فلمّـا أذاقـها طرحت عليه ربطتي وردائي[1]

وكذلك المجونيات، كقول المطرّف بن عبد الرحمن الأوسط:

أفنيت عمري في الشّر ب والوجوه الملاح

ولـم أضيّـع أصيلاً ولا اطلاع صباح

أحيـي الليالي سـهداً فـي نشوةٍ ومراح

ولست أسمـع مـاذا يقول داعي الفلاح[2]

ومن الأغراض أيضا وشعر الطبيعة، حيث تميز الأندلسيون بوصفها عن المشارقة، فالطبيعة الجميلة الخلابة التي عاشوا فيها حركت في نفوسهم وخيالهم صورا كثيرا انعكست في أشعارهم، فراحوا يصفون الرياض والبساتين وما فيها من أشجار وثمار وأزهار وطيور، ووصفوا السحاب والرعد والبرق ، كما وصفوا

---

[1] نفح الطيب" 261/2 ، وابن دحية الكلبي. عمر بن حسن الأناسي أبو الخطاب ، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وزميلاه، راجعه: طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1374 هـ – 1955 :: 148

[2] نفح الطيب: 329/1

أساطيل البحر ومتون المعارك، والقصور والقلاع ومجالس اللهو وغيرها، من ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي في سفرجلة :

ومُصفرَّةٍ تَختَالُ في ثَوبِ نَرجسٍ وتَعبَقُ عن مِسك ذكيِّ التَّنفُّسِ

لها ريـحُ مَحبوبٍ وقَسوةُ قَلبِهِ ولَونُ محبٍّ حُلَّةَ السُّقمِ مُكتسي

فصُفرّتُها من صُفرتي مستعارةٌ وأنفَاسُها في الطّيبِ أنفاسُ مُؤنسي

وكان لها ثوبٌ من الزُّغب أغبرُ على جِسم مصفرٍّ من التّبرِ أملّسِ[1]

وقول أبي الحسن علي بن حصن في وصف هديل حمامة :

وما هاجني إلا ابن ورقاءَ هاتفٌ على فَنَنٍ بين الجزيرة والنـهرِ

مُفَسْتَقُ طوقٍ لازورديٌّ كَلْكَـلٍ موشَّى الطُّلا أَحْوى القوادمِ والظهر

أَدار على الياقوتِ أجفانَ فضةٍ وصاغ من العقيان طوقاً من التّبر

حديدُ شبا المنقار داجٍ كأنه شبا قلمٍ من فضّةٍ مُدَّ في حبـر[2]

ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها :

1- رثاء الممالك الزائلة ، ومنها قصيدة أبي البقاء الرندي :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان[3]

---

[1] نفح الطيب: 594/1

[2] المطرب في حلى المغرب:251/1

[3] نفح الطيب: 487/4

2- الاستغاثة والاستصراخ، وأبرزهم ابن الأبار يستغيث ملك المغرب:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[1]

3- نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها، مثل أرجوزة ابن عبد ربه في العروض:

فكلُّ جزءٍ زالَ منه الثاني من كلِّ ما يبدو على اللسانِ

وكان حرفًا شأنُه السكونُ فإنّه عندي اسمه مَخبـونُ[2]

- **<u>ميزات الشعر المحدث</u>**

لقد كانت كل الموضوعات الشعرية في الاتجاه المحدث تمثل الحياة الجديدة للمجتمع الجديد، وتصوره تصويرا حيا في كل مراحله، حتى المجون والزهد برغم تناقضهما، إلا أنهما يرجعان إلى مصدر واحد هو تلك الحياة المتحررة اللاهية الصاخبة الجديدة بكل معطياتها، مما جعل الناس تندفع إلى التعلق بمتع الحياة، كما دفعت بعضا منهم إلى إنكار هذا الإقبال على الدنيا ، فزهدوا في الدنيا وراحوا يذكرون الموت والحياة الآخرة [3].

وفي الحالين وجد شعراء التحرر وشعراء الزهد في الاتجاه المحدث بابا مفتوحا على مصراعيه، يعبر عن واقع حياتهم، ويصور دقة نزعاتهم، فأسلوبه في جدته وتحضره ورقته أقرب إلى حياتهم الجديدة المتحضرة الرقيقة من هذا الأسلوب المحافظ القديم الذي يليق بسكان البادية.

لذا لجأ شعراء التجديد إلى أساليب جديدة تميل إلى التفضيل ويتتجه أحيانا إلى القص، وتشيع فيها روح الدعابة والسخرية والتحرر إذا كان الموضوع لاهيا، كما تشيع فيه روح المرارة والكآبة والتزمت إذا كان

---

[1] الإحاطة: 498/4

[2] ابن عبد ربه. أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية، بيروت2006 :276/6

[3] الأدب الأندلسي: 131

الموضوع جادا، ثم إنها أساليب ترسم الصور من عناصر حضرية ، بعيدة عن آفاق البادية، وتؤلف لغتها من ألفاظ بسيطة واضحة حسنة الإيقاع، تميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة.

المحاضرة الخامسة

شعر وصف الطبيعة (المتحركة والصامتة)

نشأ وصف الطبيعة مع نشأة الشعر الأندلسي، حيث أظهر الأندلسيون فيه براعة نادرة، وظل هذا اللون من الشعر حيا حتى الأنفاس الأخيرة للعرب في الأندلس.

ومنذ أبدع الله الطبيعة، وخلق الإنسان "ما فتئت النفس الشاعرة ترشف رحيق الجمال من مفاتنها، وتصوغه أناشيد عذبة في مسمع الدهر، فالبيئة الطبيعية هي الملهم الأول لكل كاتب وكل شاعر، وهي الباعث الأول على الإبداع. كذلك كان الشعر وسائر الفنون الإنسانية، وسيبقى حال الإنسان مع الطبيعة على هذا النحو من التلاحم الأبدي ما دام الكون بهذا الاتساق والحسن، وما دام في جبلة الإنسان هذا الإحساس المرهف بالجمال ... وإذا كان الأدب نتاجا للبيئة وكانت شخصية الأديب في الوقت نفسه وليدة الظروف المحيطة به والتي تعد الطبيعة من أهمها، فمن الطبيعي أن يصف شاعرنا القديم رحابة الصحراء، وامتداد الأفق، وصفاء السماء، ولمعان النجوم وسرى الليل، وعدو الخيل".[1]

وقد تميزت الأندلس بطبيعة جميلة خلابة ساحرة، فهي كما قال أبو عبيد البكري: "الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"[2]، ولهذا كان من البدهي أن شغلت هذه الطبيعة الأندلسية الناس، وسحرت كل من رأى أو سمع بهذا الجمال، وهو مزيج من الأشكال والألوان والأصوات في انسجام وتناغم، وتآلف حمل الشعراء على التعلق بها، والتغني بحسنها وجمالها، وإيثارها على سائر البيئات، فهي منبع سرور الشعراء، ومرتع عيونهم.

وقد عد هذا الموضوع –وصف الطبيعة– من أهم الموضوعات التي تحسب للأندلس بما امتاز به شعراؤها من تجديد وإبداع فيه، وتوسيع لموضوعاته الفرعية حتى شمل الدقائق الصغيرة في كل روضة

---

[1] ملامح الشعر الأندلسي: عمر الدقاق، ص 155.

[2] نفح الطيب: المقري، ج 1، ص 126.

ونهر، وسهل جبل، ووجد الشعراء الأندلسيون في هذه الطبيعة الغناء موضوعا غنيا يمكن إفراده بمقطوعات وقصائد خاصة به تميزه عن غيره، "وأصبح لهذا الموضوع شأن عند عرب الأندلس لم يكن له مثله عند أقرانهم في المشرق؛ وذلك استجابة منهم لمؤثرات البيئة وما انطوت عليه بلادهم من مشاهد الفتنة ومظاهر الحسن، وهكذا انفعلت نفوسهم بما استشعرت حولها من عناصر الجمال، وفاضت قرائحهم ببديع القول تجاه تلك الربوع التي شغفوا بها ... وهكذا دخلت الطبيعة حياة الأندلسيين، وخالطت نفوسهم وتغلغلت في أشعارهم".[1]

قال أحد الشعراء الأندلسيين مبرزا جمال الطبيعة الأندلسية وتميزها على غيرها من البلدان: (البسيط)

في أرض أندلس تلتذ نعمـــاء ولا يفارق فيها القلب سـرّاء

وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الماء صهبـاء

أنهارها فضة، والمسك تربتـها والخِزُّ روضتها، والدرّ حصباء

وللهـواء بها لطف يـرقُّ بـه من لا يرقّ، وتبدو منه أهواء[2]

وحسبنا أبيات ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأول والأبرز في الأندلس يرى أن الأندلس بما حازت من حسن وجمال قد حاكت جنة الخلد، فقال: (البسيط)

يـا أهـــل الأندلس لله درّكـمُ مـاء وظـل وأنـهار وأشجـارُ

مـا جـنـة الخلد إلا في دياركمُ ولو تـخيّرت هذا كنت أختارُ

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرًا فليس تُدخل بعد الجنّة النارُ[3]

---

1 ملامح الشعر الأندلسي: ص 206.

2 نفخ الطيب: ج 1، ص 227.

3 نفسه ج 1، ص 680.

ووصف الطبيعة في الشعر الأندلسي سار في اتجاهين هما:

<u>الأول</u>: وصف الطبيعة المتحركة **<u>الثاني</u>**: وصف الطبيعة الصامتة

أولا: وصف الطبيعة المتحركة

وهي ما اشتملت عليه الطبيعة من أصناف الحيوان والطير، ومن المعلوم أن الأندلس كان بها حيوانات وطيور كثيرة منها ما عرفه المشارقة والأندلسيون ومنها ما اختص بها الأندلسيون، قال المقري: "ويكون بالأندلس من الغزال والأيل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما يوجد في غيرها كثير، وأما الأسد فلا يوجد فيها البتة، ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة، ولها سبع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب ، وقد يفترس الرجل إذا كان جائعا، وبغل الأندلس فارهة، وخيلها ضخمة الأجسام".[1]

ولم يكن الشاعر الأندلسي بعيدا عن القيم الجمالية الخاصة بالطبيعة الحية المتحركة والمتمثلة بالحيوان والطير والحشرات بأنواعها المختلفة ... وقد سار الشعراء الأندلسيون على نهج من سبقهم في وصفهم لأشهر الحيوانات والطيور التي عرفوها وشاهدوها في زمانهم واصفين كل ما يتعلق بجمال خلقها أو صفاتها ... وإننا نلمس فيه روح التجديد مرة ونشتم فيه عبق التراث مرات ... إذ نلتقي في أشعارهم بمعظم الحيوانات التي تناولها الشاعر المشرقي، أليفة كانت أم متوحشة، بل نراهم يذكرون حيوانات لا ترد في الشعر المشرقي إلا نادرا مثل: القرد، والنعام، والخنزير البري، والزرافة، وهي مما وجد في بيئات مجاورة للأندلس.

ولنبدأ **بالخيل** ذلك الحيوان الذي أقسم الله به[2]، والذي شارك الإنسان العربي حياته، جاعلا منه مركبا في سلمه وحربه، واتخذ من جماله ورشاقته وسرعة جريه منبعا لخياله في كل عصر، ولم يغفل عنه الشاعر الأندلسي، بل شغل حيزا كبيرا من القصائد التي تناولت وصف الحيوان، ومن الأمثلة على وصف الخيل نجده عند ابن زمرك شاعر بني الأحمر الذي استحوذت ألوان الخيل المحاربة على إعجابه، حيث كان منها

---

1 نفسه ج 1، ص 197 – 198.

2 أقسم الله به في سورة العاديات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)﴾، وربط رسول الله الخير بها ففي حديث عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الخَيْل مَعقُودٌ في نَواصِيهَا الخَيْر إلى يوم القِيامة» رواه مسلم (رقم 1871).

الأشهب الذي خالط بياضه سواد، فبدأ كالصباح الذي يبدو في أوله وقد خالط ظلمة الليل، والأدهم الذي حاكى سواده الليل، والأحمر الذي يشبه الجمر المضرمة، وهذه الألوان تدل على كرم أصل هذه الخيل، وجمال منظرها، وحسن مخبرها[1]، فقال:

من أشهب كالصبح يعلو سرجه صبح به نجم الضلالة يأفل

أو أدهم كالليل قلّد شهبه خاض الصباح فأثبتته الأرجل

أو أشقر سال النضار بعطفه وكساه صبغة بهجة لا تنصل

أو أحمر كالجمر أضرم بأسُهُ بالركض في يوم الحفيظة يشعل[2]

أما **الطير** فكان لها "مكانة ومنزلة عند الشعراء العرب، وعند الشعراء الأندلسيين أيضا فالطيور تشاركهم في شدوها وتغريدها في الطبيعة، فتعطي جمالا موسيقيا لهذا الجمال الخلاب، مما يضيف حاسة السمع إلى الحواس الأخرى التي تستمتع بهذا الجمال، فهو يتشابه معها بحزنه حين فراقه، وفرحه عند اللقاء ... والشاعر الأندلسي عندما يسمع تغريد هذه الطيور، يستلهم منها القيمة الجمالية بتحريك ذواتهم من مكانها؛ لأنها تهز قلوبهم وتشدهم إلى التناغم مع هذه الطيور، فشعرهم صورة صوتية للأغاريد العذبة التي سحرتهم وأمدتهم بمفاهيم جميلة تلهم ذواتهم وتطربها، وقد جرى ذكر الطيور التي حفلت بها بلاد الأندلس ووصفها على ألسنة الشعراء الأندلسيين، ومن أبرز الطيور التي ذكروها: العصافير، والحمام، والزرزور، والمكاء، والقمري، والبلبل، والغراب، والنسر، والدراج، والغراب .... وغيرها.

وقد احتلت **الورقاء –الحمامة –** مكانة بارزة في قصائد الوصف عند الأندلسيين، حيث عقد الشاعر الأندلسي مع الحمام علاقة نفسية قائمة على الوفاء والترابط الوثيق بين الطرفين، من خلال شدو الحمام وإنشاده من جهة، ومن خلال ما يدخله مظهره الجميل من البهجة والسرور في نفس الشاعر من جهة ثانية،

---

[1] ج2 ص 15 وما بعدها

[2] نفخ الطيب: المقري، ج 7، ص 213.

ولا يختلف الأندلسيون عن المشارقة في علاقتهم مع هذا الطير، حيث حركتهم أشجانه، وضربوا المثل بوفائه وحبه لأولاده، يذكرونه صباحا على الأفنان في شجو وحنين.

ومن أمثلة ما نجده في أبيات ابن عبد ربه التي يذكر فيه شجو الحمام الحزين، هذا الشجو الذي هيج عواطف الشاعر وأحاسيسه، وقد بلغ ذروته عندما تصور أن حزن الحمام بسبب حزن الشاعر، فالشاعر جعلها تحزن لحزنه وتبكي لبكائه، وهنا يبدو التمازج والتماهي بين الشاعر والحمامة، فقال:

وإن ارتياحي من بكاء حمامة كذي شجن داويته بشجون

كأن حمام الأيك لما تجاوبت حزين بكى من رحمة لحزين[1]

أما الشاعر أبو إسحاق الإلبيري يوازن بين بكائه لكثرة ذنوبه وبكاء حمامة تبكي لفرقة حبيب، فيقول:

أحمامة البيدا أطلت بكاك فبحسن صوتك ما الذي أبكاك

إن كان حقا ما ظننت فإن بي فوق الذي بك من شديد جواك

إني أظنك قد دهيت بفرقة من مؤنس لك فارتمضت لذاك

لكن ما أشكوه من فرط الجوى بخلاف ما تجدين من شكواك

أنا إنما أبكي الذنوب وأسرها ومُناي في الشكوى منال فكاكي

وإذا بكيت سألت ربي رحمة وتجاوزا فبكاي غيــر بكــاك[2]

[1] ديوان ابن عبد ربه، ص 165.

[2] ديوان أبي إسحاق الإلبيري: ص 38.

ومن الطيور التي وصفها الأندلسيون **النعامة**، وذكر ابن خفاجة النعامة باسمها في قصيدة مدح بها الأمير أبا إسحاق بن يوسف بن تاشفين، ذكر فيها أن الأسد أقل جرأة من ممدوحه، وتبعا لذلك صار عدوه كالنعامة، فقال:

عرضت له والليث دونك جرأة فأجفل إجفال النعامة يجزع[1]

ولم تغفل اللوحة الشعرية الأندلسية كائنات أخرى كالزواحف والحشرات، حيث وصف الشعراء: النحلة، والفراشة، والبعوض، ودودة القز، ومن أمثلة ذلك: قول ابن شهيد يصف **نحلة**:

وطائرةٍ تهوي كأن جناحَها ضمير خفي لا يُحدّده وهمُ

منافرةٍ للإنس تأنس بالفلا مفرقة للشهد من بعضها السّمُّ[2]

ثانيا: وصف الطبيعة الصامتة

يراد بها الظواهر الطبيعية في الكون التي لم تتدخل فيها يد الإنسان، وتشمل: الرياض، والأزهار، والثمار، والأنهار، وغيرها، والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة الطبيعة، وأكثر إيحاء للحس الطبيعي، فهي التي تحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها.

1- الروضيات:

هي القصائد التي تعني بوصف الرياض، ولقد ازدهر هذا اللون من الوصف، حيث كانت مدن الأندلس تزادن بالرياض والبساتين التي تلتف حول القصور والدور أو تحفل بها ساحتها، والسقيا والتفاف الأشجار، واستجادة الأجناس. ولم تعد الروضة التي يصفها الأندلسي هي الروضة البدوية البسيطة، إذ بعد البداوة واكتمال الحضارة، حشدت روضتهم أنواعا من الورود والأزهار والرياض المنسقة تنسيقا رشيقا.

---

[1] نفسه: ص 187.

[2] ديوان ابن شهيد: ص 150.

ولقد برع شعراء الأندلس في وصف الروضيات وامتازوا في وصفها وبرعوا في أن يجعلوا من قصائدهم لوحات فنية تجذب الأنظار، وقد اتسمت اللوحات الشعرية التي تناولت الروضيات بالتنوع وتعدد الألوان؛ لما تحويه هذه الروضيات من: أزهار، وأشجار، ومياه، وأمطار وغير ذلك، فتمثل الشعراء هذه المعاني ببراعة فائقة فاتنة ولم يتركوا مظهرا من مظاهر الروضيات إلا صوروه وأجادوا التصوير حتى كأن اللوحة الروضية نفخت فيها الروح فغدت حية.

فهذا الشاعر أبو حفص عبد الله بن برد يرفع صوته بقدوم الربيع الذي نشر الحلل المذهبة، فاخضرت الغصون وازينت بأزهارها، مشبها تغلغل أشعة الشمس بين أغصانها وكسوتها بألوان جميلة كالعذراء تخجل حين تهوى، فقال:

هذا الربيع وكنت ترقبه فانظر بعيشك كيف تصحبُه

قد نشرت حلل النبات به فبدا مفضّضُة ومُذْهُبُه

والورد قد سمت الغصون به تجلوه والأبصار تخطبه

والشمس قد ضرب الضحاء بها في صبغه فذكا تلهّبُه[1]

2- الزهريات:

أكثر الشعراء الأندلسيون من وصف الزهور المختلفة في ألوانها، المتفاوتة في جمالها، فوصفوا القرنفل، والياسمين، والنرجس، والنيلوفر، والشقائق، والبنفسج، والبهار، والأقحوان، والخيري، والسوسن، وغيرها من الأزهار التي وقعت عليها أحداقهم، وقد يصف الشاعر الأندلسي زهرة واحدة، وربما تضم أبياته جملة من الأزهار، فالشاعر ابن اللبانة الداني يحدثنا عن ورد يذوب كالخد من الحياء وعن نرجس أصيب بروعة فاصفر لونه، وريحان يحتفظ بلونه الأخضر لا يتغير كروح الشاعر لا تتغير بتغير الأشياء، فقال:

[1] البديع في وصف الربيع: الحميري، ص 126.

والورد تحت الطلُ فيها مشبــه خدّا يذوب من الحياء فيقطر

وكأن نرجسها أصيب بروعتي فعلاه لون مثل لوني أصفر

فكأنما الريحان روحي كلمــا تتغير الأشياء لا تتغيـــر[1]

والمعتضد بن عباد افتتن بجمال زهرة الياسمين وحسنها، فشبهها بالكواكب اللامعة في السماء، ويشبه الشعيرات الحمر التي تنسرح في صفحتها بخد فتاة حسناء فيه آثار عض، فقال:

كأنمــا ياسميننــا الــغض كواكب في السماء تبيض

والطرف الحمر في جوانبه كخد عذراء ناله الـعض[2]

وقد ذهب الشعراء الأندلسيون في الزهريات مذاهب استغربها النقاد كرثاء الزهور وهجائها، فالشاعر ابن حمديس يرثي باقة من الزهر أصابها الذبول ثم ماتت، فحزن الشاعر لذلك حزنا شديدا، فقال:

يا باقة في يميني للردى بذلت أذاب قلبي عليك الحزن والأسفُ

ألم تكوني لتاج الحسن جوهرة لما غرقت فهلا صانك الصدفُ

3- النوريات:

من الجديد في شعر الطبيعة الأندلسي مقطوعات قصار تسمى "النّوريات"، حيث يخرج الشاعر في كل منها نورة جميلة عطرة يسميها بأسماء الأزهار مثل القرنفل والريحان والبهار والورد والنرجس، وهناك نماذج متعددة للنوريات، حيث تناول وصف الشعراء لنور: الكتان، واللوز، والرمان، والجلنار، والباقلاء، ومن الأمثلة على ذلك: قول أبي الوليد الحميري في وصف نور الكتان وهو معروف بزهرة زرقاء، وقد شبهه الشاعر بكف فيروزية تختفي معاصمها في رداء أخضر أو ياقوت أزرق استلقى على بساط سندسي:

---

[1] ديوان ابن اللبانة الداني، ص 65.

[2] الذخيرة: ابن بسام، ق 2، ج 1، ص 29

كأن نور الكتان حين بدا وقد جلا حسنه صدا الأنفس

أكُفٌّ فَيْروزجٍ معاصـــمها قد سَتَرتهُن خضرةُ الملـبس

أولا فَزُرقِ الياقوتِ قد وضعت على بساط يروق من سندس[1]

4- الثمريات:

فتن الأندلسيون بالثمرة الحلوة التي تملأ العين سحرا والنفس بهجة وسرورا، وأثارت الثمار بحسنها وحلاوتها وطيب أريجها شاعرية الأندلسيين، فرسموا لها صورا نضيرة ولوحات جذابة أنيقة الألوان محكمة الظلال زاهية الأصباغ، ومن الأمثلة على ذلك: أن الشاعر أحمد بن فرج الجياني أهدى صديقا له رمانا، وكتب معها رسالة يصف فيها فاكهة **الرمان** مشبها حباتها بجواهر قد ضمها صدف أحمر تبهر من رآها، ثم يشبهها بحُقّ(أي وعاء خشبي) ملأ بالمرجان الأحمر، قال:

ولابسة صدفا أصفرا أتتك وقد ملئت جوهـرا

كأنك فاتح حُقٍّ لطيف تضمّن مرجانَها الأحمرا

وقد أبدى الشاعر علي بن معمر اهتمامه بثمرة الخوخ، فوصفه وهو على الشجرة بين الأغصان الخضراء، فقال:

يا حبّذا الخوخ إذا ما بدا في الأغصُنِ المخضرّةِ المَلْدِ

5- المائيات:

إن مما وهب الله به بلاد الأندلس تلك الأنهار الوفيرة المياه التي أحيت جنبات الأندلس، وقد كانت أكبر مدن الأندلس تقع على ضفاف هذه الأنهار، مثل: إشبيلية، غرناطة، وقرطبة، فجعل الشعراء الأندلسيون

[1] الذخيرة: ابن بسام، ق 2، ج 1، ص 133.

يتخذون من ضفافها أماكن للهو والمتعة، ومن صفحاتها بساطا تجري عليه زوارقهم، وهم مع كل هذا يغنون ويطربون وتجود قرائحهم شعرا عذبا أخاذا.

ومع تطور الحضارة الأندلسية أدخل الأندلسيون مياه الأنهار إلى قصورهم لتجري البرك الفخمة في أفنيتها من خلال أفواه التماثيل، فصار ذلك المنظر يشغل خيال الشعراء، ويساعدهم في نظم شعر عذب رقيق في وصف البرك والتماثيل والقصور. وقد سميت القصائد التي دارت حول موضوعات الماء تحت اسم المائيات.

لقد ولع الأندلسيون بوصف الأنهار على نحو لم يرد عند غيرهم حتى أنهم ولدوا من وصفها صورا عديدة كانت غاية في الروعة والجمال، فالشاعر ابن خفاجة يرسم صورة رقيقة أنيقة للنهر فيبدع فيها وكأنه يكتب أبياتا غزلية لمحبوبة، فقال:

لله نهر ســـال في بطحـــاء أشهى ورود اً من لمى الحسناء[1]

متعطف مثل السـوار كأنـــه والــزهر يكنفـــه مجر سمـــاء

قد رق حتى ظن قرصاً مفرغا مــن فضة في بــردة خضــراء

وغدت تحف به الغصون كأنها هــدب يحف بمقلــة زرقـــاء[2]

6- الثلجيات:

هي القصائد التي تناولت وصف الثلج، حيث كان منظر الثلج وقد كسا الكون بردة بيضاء من أروع ما يقع عليه البصر، فضلا عن رؤيته وهو يتناثر كالقطن من السماء، ثم رؤيته مجتمعا على السفوح والسطوح والأغصان، فيجعلها مكسوة بحلة بيضاء، وعلى الرغم من إعجاب الشعراء الأندلسيين بمنظر الثلج

[1] لله نهر: تعجب، وأصله: لله در، البطحاء: مسيل واسع، لمى: سمرة للشفاة تزيدها حسنا.

[2] بمعنى: إن الماء الجاري بين خضرة البساتين كالعين وحولها الأهداب – شعر الجفن –، وزرقة العين تشابهت مع زرقة الماء.

إلا أننا نجد أن الثلجيات لم تنل اهتمامهم بالقياس إلى الروضيات والمائيات؛ ربما لأن للثلج متاعبه ومخاطره من سد للطرقات، ووخز للعظام ببرده، وتعطيل لحركة الحياة ونشاط الناس، والإضرار بما تنبت الأرض من أرزاق. ومهما يكن من أمر فقد بدأ شعر الثلجيات في الأندلس متأخرا، ولعل أكثر الشعراء نظما في وصف الثلج شاعر الطبيعة الأبرز ابن خفاجة الذي قال في وصف الثلج:

ألا فضَلَت ذيلها ليلةٌ تجرُّ الربابُ بها هَيْدَبا[1]

وقد برقع الثلجُ وجهَ الثرى وألحف غصن النقا فاحتبى[2]

فشابت وراء قناع الظلام نواصي الغصون وهامُ الرُّبى[3]

ووصف أبو جعفر المعافري الشاطبي الثلج مبرزا أثر رؤيته وجمال منظره، فقال:

ولم أر مثلَ الثلجِ في حسن منظرٍ تقرُّ به عينٌ وتشنؤهُ النّفسُ

فنارٌ بلا نورٍ يضيء لنا سنا وقَطرٌ بلا ماءٍ يُقلّبه اللمسُ

وأصبح ثغرُ الأرض يفتر ضاحكا فقد ذاب خوفا أن تقبّله الشمسُ[4]

---

[1] فضلت: أي تركت وراءها بقية، الرباب: السحاب، هيدبا: أي قريب من الأرض.

[2] برقع: غطى، والمراد أن الثلج صار من كثرته كالبرقع للأرض، وألحف: أي صار له لحافا؛ لأنه لفه بأجمعه واشتمل عليه.

[3] يريد أن يقول: إن اللون الأبيض الثلجي صار كأنه شيب وقار رؤوس الأغصان، وهامات الروابي.

[4] تحفة القادم: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ت 658 هـ، دار الغرب الإسلامي، الأولى، 1406 هـ – 1986 م، ص 53.

المحاضرة السادسة

امتزاج شعر الطبيعة بالأغراض الشعرية وخصائصه

إن الطبيعة الأندلسية الخلابة دخلت حياة الأندلسيين، وخالطت نفوسهم، وتغلغلت في جميع أشعارهم كالمديح، والرثاء، والغزل، والخمريات... فكانت الطبيعة بالنسبة لهم ملاذا وملجأ يبثونها أفراحهم وأتراحهم، فتفرح الطبيعة بفرحهم وتحزن بحزنهم، وبذلك أصبح المنظر الطبيعي في القصيدة الأندلسية، فاتحة القصيدة أو أساس يبنى عليه موضوع الخمر أو موضوع الحب أو غيره من الموضوعات.

أولا – امتزاج الطبيعة الأندلسية بمختلف الأغراض الشعرية:

1- مزج الطبيعة بالمديح:

لم يكن المزيج بين الطبيعة والمديح بدعا في المجتمع الأندلسي، بل عرفه المشارقة، ولكن الأندلسيون برعوا في هذا الاتجاه وبلغوا فيه درجة الكمال والجمال، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة يمدح أبا الحسن بن الربيع صاحب قرطبة، وقد اتخذ من الطبيعة سبيلا للمديح، فقال:

وغمامةٍ نشــرت جناحَ حمامــةٍ والبرقُ قد نسجَ الظلامَ نَهارا

متألِّقٌ صدعَ الدُّجى وسقى الثّرى فابيـضّ ذا نـورًا وذا أنـوارا

في أجرعٍ خلفَ الربيــعُ به ابنــه كرمــا فأخْصَبَ ربــوة وقرارا

هفت الصبا منه بمسرى ديمــةٍ هطلاءَ قرّ بِها العجاج وقارا[1]

[1] ديوان ابن خفاجة، ص 140.

2- مزج الطبيعة بالغزل:

اعتاد الشعراء، عربا وأعاجم، تشبيه محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة، كأن يجعلوا قدها كالغصن وشعرها كالليل، غير أن شعراء الأندلس كانوا بحكم بيئتهم أكثر تجاوبا من سائر شعراء المشرق مع مشاهد الطبيعة التي حفلت بها بلادهم الجميلة، وكان من المنطقي تبعا لذلك أن تشيع معاني الطبيعة في موضوعات الغزل... وكثيرا ما يحدث تداخل على نحو عكسي، حين تغدو الطبيعة لدى الشاعر متسمة بملامح المرأة ... وعلى هذا الغرار يتم التبادل والتقابل في الشعر الأندلسي بين عنصري الطبيعة الجميلين: الطبيعة والمرأة، ومن أبرز الأمثلة على التداخل بين المرأة والطبيعة قصيدة ابن زيدون التي خاطب بها ولادة بنت المستكفي:

إني ذكرتك بالزهـراء مشتـاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

وللنسيـم اعتلال في أصـائله كأنّه رقَّ لـي فاعتـل إشـفـاقـا

والروضُ عن مائه الفضيِّ مبتسمٌ كما شقَقْتِ عن اللَّبـّاتِ أطـواقا[1]

3- مزج الطبيعة بالخمرة:

كثيرا ما حلت المرأة والخمرة معا في الطبيعة أو حلت الطبيعة فيهما في مزيج عذب معجب، وما اجتماع هذه العناصر الثلاثة معا في كثير من الأحيان إلا من وحي ربوع الأندلس، وليالي السعد في أحضان تلك الطبيعة الجميلة، حيث يحلو الغزل وتطيب الخمرة، ومن ذلك رائية أبي بكر بن عمار التي مدح فيها المعتضد بن عباد، وقد صدرها بمقدمة خمرية ممزوجة بالغزل ووصف الطبيعة، قال فيها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره لمـــا استـرد الليـل منا العنبـــرا

[1] ديوان ابن زيدون، ص 194.

والروض كالحسنا كساه زهره وشيا وقلده نداه جوهرا[1]

4- مزج الطبيعة بالرثاء:

كان شعر الطبيعة مهربا للشعراء وهم في أقصى حالات التفجع والتوجع، ولقد التفت شعراء الأندلس إلى هذه المنطقة فسجلوا كثيرا من قصائدهم ومقطوعاتهم التي مزجوا فيها الحسرة والألم بذكر الطبيعة وما حوت من جمال وجلال وإشراق وتبسم.

إنه عندئذ يشخص الطبيعة ويتعامل معها على أنها ذوات حية تحس به ويحس بها، ويخلع عليها صفات الأحياء الذين يحسون وينفعلون ... ولا ينظر إليها على أنها تماثيل جامدة يصف جمالها الظاهر وفتنتها الحسية فقط، إنه التعاطف الداعي للتشخيص والمشاركة من خلال التعبير، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة يرثي الوزير أبا محمد عبد الله بن ربيعة:

في كل ناد منك روض ثناء وبكلِّ خدٍّ فيك جدول ماء

ولكل شخص هزةُ الغصن النّدي غبّ البكاء ورنة المُكّاء[2]

يا مطلع الأَنوار إن بمقلتي أسفا عليك كمنشإ الأنواء

ثانيا- خصائص شعر الطبيعة:

كان لشعر الطبيعة نصيب كبير من العناية بموضوعات الطبيعة الأندلسية، فقد وصف حدائقها، وبساتينها، وورودها، وأطيارها، وأنهارها ...، فلم يترك جميلا إلا وصفه ولا بديعا إلى صوره ولا طريفا إلا أشار إليه، ولهذا اللون من الشعر شكله المتميز، وهويته المستقلة التي يمكننا أن نتناول من خلالها الخصائص والسمات التي اتسم بها شعر الطبيعة، ومن هذه الخصائص:

---

[1] الذخيرة: ابن بسام، ق 2، ج 1، ص 382.

[2] غب: عاقبة الشيء، والمكاء: طائر ينفخ فيحدث صفيرا.

أ- شعر الطبيعة يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، بعد أن كان هواهم متعلقا بالجزيرة العربية.

ب-هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في: الحقول، والرياض، والأنهار، وغيرها، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة في القصور والمساجد والبرك والأحواض وغيرها، فيكمل بذلك تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حبا وبها تعلقا.

ج- هو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، وكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم، فابن زيدون تغنى بقرطبة وزهرائها، وابن سفر المريني يصف إشبيلية، وهكذا عبر شعراء الأندلس عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها.

د- الطبيعة عند الشعراء الأندلسيين طروب تبعث جو الطرب، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها، ولهذا أكثر الشعراء في وصفهم للطبيعة من ذكر المتنزهات ومجالس أنسهم ولهوهم.

هـ-وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر، وهو طريق إليهما، فقد كان شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب، بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لونا بهيجا من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب.

و- المرأة صورة من محاسن الطبيعة، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها، ولذا كانت الحبيبة روضا وجنة وشمس، وقد قال المقري عن الأندلسيين :"إنهم إذا تغزلوا صاغوا من خدود الورد، وعيون النرجس، و أصداغ الآس، ونهود السفرجل، وقدود قصب السكر، ومباسم

قلوب اللوز، وسرر التفاح، ورضاب ابنة العنب"[1]، وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة، فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة.

ز- لا يظهر شعر الطبيعة عند الأندلسيين كغرض مستقل إلا نادرا في بعض المقطوعات والقصائد، وقد امتزج في أكثر الأغراض التي طرقها الشعراء الأندلسيون كالمديح، والرثاء، والفخر، والغزل.

ح- كان من ملامح وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي الإيغال في التصوير القائم على التزيين والتلوين، جريا على ما عرف به الأندلسيون من ميل إلى الزخرفة والزينة ... وهذه النزعة الجامحة لدى بعض شعراء الطبيعة إلى التزيين والتلوين في عباراتهم أدت إلى اكتظاظ الصور في جانب كبير من أشعارهم التي حفلت بالتشبيهات والاستعارات.

---

[1] نفخ الطيب، المقري، ج 3، ص 496.

المحاضرة السابعة

شعر الفخر والحماسة في الأندلس (1)

لم تخل بلاد الأندلس ، طيلة بقائها ، من فتن داخلية وحروب خارجية ، ففي الداخل عمد حكامها من العرب والمسلمين ، في عصور القوة ، إلى قمع الثورات المناهضة للحكم ، من مثل ثورة الربض ، وثورة ابن حفصون ، وثورة ابن مردنيش وغيرها ، وفي الخارج أكثر الخلفاء والحكام من الصوائف والشواتي[1] ، لغزو العدو الصليبي في الممالك النصرانية .

وكانت الأرض الأندلسية ميدانًا واسعًا للتنازع والقتال ، وكان أهلوها تارةً غزاة وتارةً مغزوّين ، ينتصرون تارة ويُهزومون تارة آخر، وهم في كل حال جماعة تتسلح بالجلد والقتال ، وتذود عن الحمى والأوطان ، يقوم فيما بينها من يحثّ على القتال ، ويبث الحماسة في قلوب الأبطال ، ويسجل المواقع بشعر حماسي يعبّر عن نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ويتغنى بفرحة الانتصارات ، وعظمة البطولات ، إنه الشعر الحماسي ظهر متمثلا تارة بالفخر الذاتي الفردي وما فيه من إبراز صفات الشجاعة والبطولة والفروسية ، التي من شأنها أن تذكي روح الغيرة والحماسة في النفوس التواقة للدفاع عن الحق والدين والأرض ، وتارة من خلال تصوير المعارك القتالية بلسان شاعر متوثب ومنفعل بالأحداث والوقائع ، سواء أكان الشاعر يخوض المعارك بسنانه أم ببيانه أم بهما معا .

ولعل أغلب الداخلين إلى الأندلس في بدايات الفتح جنودا وحكاما، صبّوا جلّ عنايتهم في المعارك والسياسات لا في الثقافة والآداب، غير أن ذلك لم ينفِ الدور الحماسي للأدب ، شعرا كان أو نثرا، في شحذ الهمم ورفع معنويات المقاتلين وتحميسهم على الهجوم والقتال ، ولعل

---

[11] الصوائف والشواتي : وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء

قدرا ضئيلا من الأدب وفد مع نفر من العلماء والتابعين الذين كان لهم الفضل في تسيير أمور الدولة والناس آنذاك[1] .

سيرورة شعر الفخر والحماسة في الأندلس

إذا تجاوزنا عددا من السنين بعد الفتح ، وصاحبنا قوافل العرب الوافدين على الأندلس ، نرى كثيرا منهم كان يقرض الشعر، غير أن أشعارهم وأسماءهم قد ضاعت مع ما ضاع من تراث الأندلس ، لاسيما في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة ، ومما وصلنا من شعراء هذا العهد قول أبي الخطار حسام بن ضرار ، أحد الولاة من أكابر القحطانيين المشهورين بفروسيته وشاعريته حتى لقّب بعنترة الأندلس ، والذي قال مفتخرا [2]:

فليت ابنَ حَوّاسٍ يُخَبَّرُ أنّني سعيتُ بهِ سَعْيَ امرئٍ غيرِ غافِلِ

قتلتُ به تسعينَ تحسَبُ أنّهم جذوعُ نخيلٍ صُرِّعَتْ بالمسايلِ

ولو كانتِ الموتى تُباعُ اشتريتُهُ بكفّي وما استثنيتُ منها أنامِلي

والحق أن مظاهر الفخر الحماسي في هذا العهد الذي تطاحنت فيه الأحزاب تطاحنا شديدا، كان مصبوغا بالعنصرية الحزبية الضيقة ، التي يكون فيها لسان الحزب ناطقا بحقوقه وطموحه ، ناشرا تعاليمه وآراءه ، هادفا إلى الامتداد والتوسع ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه في العهد الأموي ، بسبب قيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج ، ومن يمنيين وعدنانيين ، وقيسيين ومروانيين ، وغيرهم[3].

---

[1] ينظر الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : 64

[2] الحلة السيراء : 66/1

[3] الفاخوري . حنا ، الفخر والحماسة : 6

كـذلك نجـد هـذا النـوع مـن الفخـر عنـد الشـاعر الطليـق مـروان بـن عبـد الـرحمن ، الأميـر الأمـوي الـذي عـاش فـي النصـف الثـاني مـن القـرن الرابـع الهجـري ، علـى الـرغم مـن نـدرة الفخـر فـي شعره غير أنه يفتخر بجده الناصر وبأجداده الأمويين من عبد شمس بقوله [1] :

مَنْ فتًى مثلي لبأسٍ وندًى ... ومقالٍ وفَعالٍ وتُقى

شرفي نفْسي وحَلْيي أدبي ... وحُسامي مِقْوَلي عندَ اللِّقا

ولساني عندَ مَنْ يَخْبُرُهُ ... أفعوانٌ ليس يثنيه الرُّقى

ويميني يُمْنُ عافٍ مُعسِرٍ ... جَمَعتْ حَمْدا غدا مُفْترِقا

جدّى الناصرُ للدين الذي ... فَرَّقَتْ كفّاه عنهُ الفِرَقا

أشرفُ الأشرافِ نفسًا وأبًا ... حينَ يَعلوه وأعلى مُرْتَقى

أنا فخرُ العَبْشَميّين[2] وبى ... جَدَّ من فخرهم ما أخلقا

أنا أكسو ما عفى من مجدِهم ... بحُلى روقِ شعري رونقا

وقـد أخـذ هـذا النـوع مـن الفخـر يتضـاءل شـيئا فشـيئا فـي العصـور الأندلسـية المتـأخرة ، غيـر أننا نجد أصداءه ، من آن إلى آخر، في مدح الخلفاء والحكام ، كما سيمر بنا لاحقا .

ولعـل مـن أصـدق المفـاخر ، فـي عهـد الإمـارة الأمويـة ، التـي تنطبـق حقيقـة علـى المفتخـر ، مـا جـاء علـى لسـان أبـي المخشـي وهـو يمجـد حماسـة الـداخل وابنـه سـليمان ، وانتصـارهما فـي

[1] الحلة السيراء 224/1

[2] أي بني عبد شمس .

الوقيعة بأبي الأسود الفهري ، التي كانت عظيمة من أعظم فتوحات العهد الأموي في الأندلس[1]:

أما سليمانُ السماحِ فإنَّه جَلّى الدُّجى وأقام سيل الأصْعَرِ

وهو الذي ورِث النّدى أهلَ النّدى ومحا مَغَبَّةَ يومِ وادي الأحمرِ

كذلك كان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالربضي بليغا فصيحا وشاعرا مجيدا ، وخير ما يمثل شعره الحماسي قوله بعد انتصاره في موقعة الربض مفتخرا بإقرار الأمن في البلاد [2]:

رَأَبْتُ صُدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقعًا وقِدْمًا لأمْتُ الشعبَ مُذ كنْتُ يافِعا

فسائلْ ثُغوري هل بها اليومُ ثَغْرةٌ أُبادرُها مُسْتَنْضِيَ السيفِ دارِعا

وشافِهْ على الأرض الفضاء جماجمًا كأقحافِ شريان الهبيدِ[3] لوامعا

تُنبِّيك أنّي لم أكن في قراعِهم بِوانٍ ، وأنّي كنتُ بالسّيفِ قارِعا

وأنّي إذا حادوا سِراعًا عن الرّدى فما كنتُ ذا حَيْدٍ عن الموتِ جازِعا

ولم يكن ابنه عبد الرحمن الأوسط أقل منه شجاعة وبسالة وبلاغة وأدبا ، فقد استكمل فخامة الملك بالأندلس ، وكساه حلة من الجلال والتطور مدة خلافته التي دامت إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، وقاد بنفسه الوقائع المشهورة والغزوات المتتابعة ، ففتح حصونًا كثيرة من جليقية وميورقة ومنورقة ، وهزم المجوس بأسطوله الذي جهزه من ثلاثمائة مركب سنة أربع وثلاثين ومائتين[4]، وله انتصارات عديدة ومناقب كثيرة ، وفي ذلك يقول مفتخرا[5]:

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة : 234/4

[2] المغرب في حلى المغرب : 44/1-45

[3] الهبيد : الحنظل

[4] المغرب في حلى المغرب : 48/1

[5] الحلة السيراء : 115/1

ألاقي بوجهيَ حَرَّ الهجير إذا كاد منه الحصى أن يذوبا

وأَدَّرع النقْعَ حتى لبسـ تُ مِن بعد نضرة وجهي شحوبا

أريد بذاك ثوابَ الإله ومن غيره أبتغيه مُثيبا

أنا ابنُ الهِشامينِ من غالبٍ أشبُّ حروبًا وأُطْفي حروبا

ولما وقعت غزوة وادي سليط [1]، وهي من أمهات الغزوات أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، ألحق المسلمون بالنصارى هزيمة نكراء ، فألهبت الحماسة نفوس الأبطال ، وأذكت روحهم بالفخر والاعتزاز ، وأخذ الشعراء يسطرون التاريخ بألفاظ شديدة البأس قوية الإيقاع ، وعبارات تسمع فيها قرع السيوف وصلصلة الرماح ، ومنهم عباس بن فرناس ، يقول[2]:

ومُختَلِفِ الأصواتِ مؤتَلفِ الزَّحفِ لهومِ الفَلاَ عَبلِ القَنَابل مُلتَفِ[3]

إذَا أومَضت فِيهِ الصَّوَارِمُ خِلتَهَا بُرُوقًا تَرَاءى في الجَهَامِ وتَسْتَخْفِي

كأنَّ ذُرَى الأعلامِ في مَيَلاَنِهِ قَرَاقِيرُ [4] في يَمٍّ عَجَزْنَ عن القَذْفِ

وقد واصل الشعر الحماسي سيره في عهد الخلافة ، فكان الشاعر رفيق الأمير أو الخليفة في الجهاد ، ينشده غازيا وراجعا ، ويمزج المدح بالحماسة ووصف المعارك ويشيد بالانتصارات والفتوحات ، أو يبرر الهزائم والانكسارات ، ونجد ذلك متجليا في أول غزوات عبد الرحمن الناصر المعروفة بغزوة المنتلون [5]، التي أنشد أحمد بن محمد بن عبد ربه أبياتا تشيد بالنصر المبين ، وملأها بالمدح والحماسة والتثبيت [6] :

---

[1] البيان المغرب : 111/2

[2] البيان المغرب : 2/ 111-112

[3] لهوم : ملتهم ، عبل : ضخم

[4] قراقير : سفن كبيرة

[5] الإحاطة في أخبار غرناطة : 465/3

[6] ابن عبد ربه . أبو عمر أحمد ، ديوان ابن عبد ربه ، تحقيق محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1979: 127-128

فصلتَ ، والنصرُ والتَّأييدُ جُنداكا والعزُّ أولاكَ والتَّمكينُ أُخراكا

ضِدّانِ في قَبضَتَيْ كفَّيكَ قد جُمعا لولاهما لم يطبْ عيشٌ ولولاكا

يمضي أمامَكَ نصرُ اللهِ مُنْصَلتًا بالفتح يقصمُ من في الأرضِ ناواكا

والناسُ يَدْعون والآمالُ راغبةٌ والطَّوعُ يرجوك والعصيانُ يخشاكا

ومن يمينكَ بدرٌ ما لهُ فلكٌ ولن ترى لبدورِ الأرض أفلاكا

يقودُ جيشًا إلى الأعداء مرتجسًا عَرمْرَمًا يترك الآكام دَكداكا

وعندما قفل الناصر لدين الله من غزوته تلك بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من خروجه إليها، وحقق انتصارات عظيمة ، انتهت بفتح سبعين حصنا من أمهات الحصون ، وافتتح ببسالته وقوة جيشه ما يقارب الثلاثمئة ما بين حصن وبرج ، أنشده ابن عبد ربه أبياتا تبين ما خلفته هذه الفتوحات من عدل وأمن وسلام ، وتصور بطولة الجيش وإقدامه بقوة وجسارة أرعدت فصائل العدو وهزت أركانه ، حتى إنها أرهبت ابن الشاليه الذي اضطر إلى تسليم جميع حصونه ومعاقله من غير حرب أو منازعة ، وكان عددها يقارب المئة [1]، فكأن الجيش يجلجل كالرعد ، ويحمل سيوف الموت تلمع كالبرق ، قال [2]:

قدْ أوضحَ اللهُ للإسلامِ منهاجًا وَالنَّاسُ قَدْ دَخَلُوا في الدِّينِ أَفْواجا

وقد تزيَّنَتِ الدّنيا لساكنها كأنّما أُلْبِسَتْ وشْيًا وديباجا

.....

وَالحَرْبُ لَوْ عَلِمَتْ بأسًا تَصُولُ بِهِ ما هَيَّجَتْ مِنْ حُمَيَّاكَ الَّذي اهْتاجا

ماتَ النفاقُ وأعطى الكفرُ ذمتهُ وَذلَّتِ الخَيْلُ إلْجامًا وَإسْراجا

وأصبحَ النصرُ معقودًا بألويةٍ تطوي المراحلَ تهجيرًا وإدلاجا

أدخلتَ في قبةِ الإسلامِ مارقةً أَخْرَجْتَهُمْ مِنْ دِيَارِ الشِّرْكِ إخْراجا

---

[1] دار سعد الدين ، دمشق 1992 : 22 آل طعمة . محمد عدنان ، تاريخ عبد الرحمن الناصر ،

[2] ديوان ابن عبد ربه : 35–36

بجحفلٍ تشرقُ الأرضُ الفضاءُ بهِ كالبَحْرِ يَقْذِفُ بالأَمْواجِ أَمْوَاجَا

يقودهُ البدرُ يسري في كواكبهِ عَرَمْرَمًا كَسَوادِ اللَّيْلِ رَجْراجا

يَرَونَ فِيهِ بُرُوقَ المَوْتِ لامِعَةً ويسمعونَ به للرعدِ أهزاجا

وتوالت الانتصارات والفتوحات العظيمة ، زمن عبد الرحمن الناصر ، بتوالي الصوائف والشواتي ، وقد جمع ابن عبد ربه غزوات الناصر ، من سنة ثلاثمئة حتى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة ، في أرجوزة طويلة مجد فيها بطولة الخليفة وبسالته وعزمه وحزمه ، ووصف المعارك الحماسية بتفاصيلها وأسماء قوادها ومواقعها ، كما صور التحام الجيشين ، واصطدام الرجال بالرجال ، إلى أن تمّ نصر الله ، من ذلك قوله في أرجوزته الشهيرة[1]:

قد أَشرقتْ بِنُورِهِ البلادُ وانقطعَ التَّشغيبُ والفسادُ

وجَدَّد الملك الذي قد أَخْلَقا حتى رَسَت أوتادُه واسْتَوسقا

وجَمَع العُدَّة والعديدا وكثَّف الأجنادَ والحشودا

لما رماها بسيوف العزْمِ مشحوذَةً على دروعِ الحزم

فسار في كتائبِ كالسَّيْلِ وعسكرَ مثْلَ سوادِ الليلِ

ناصبَهَم حربًا لها شَرارُ كأنَّما أُضرِمَ فيها النارُ

وجدَّ من بينهم القتالُ وأحدقت حولهم الرجالُ

وفارقت أغمادَها السيوفُ وفغَرت أفواهَها الحتوفُ

والتقتِ الرجالُ بالرجالِ وانغمسوا في غمرةِ القتالِ

ففاز حزبُ الله بالعلجانِ وانهزمت بطانةُ الشيطانِ

كذلك دانت ملوك (قشتالة و نفارا و قطالونيا) من بعده لأبي عامر المنصور ، الذي غزا بنفسه خمسين غزوة ،لم ينهزم في واحدة منها طوال حكمه ، وأنزل ببلادهم خسائر فادحة ، كما جاست خيله في أمكنة لم يكن قد خفق فيها علم إسلامي من قبل ، وبفضله سقطت في يد

[1] ديوان ابن عبد ربه : 179-210

المسلمين شنت ياقب وهي أقدس مكان لمسيحيي إسبانيا [1]، فلا عجب أن نراه يفخر ببطولته وحماسته وإقدامه في قوله [2]:

ألم ترني بِعْتُ الإقامةَ بالسُّرى ولينَ الحشايا بالخيولِ الضوامرِ

تبدَّلْتُ بعد الزعفرانِ وطيبِهِ صدا الدِّرعِ من مُستَحْكمات المسامرِ

أروني فتًى يحمي حمايَ وموقفي إذا اشْتجَرَ الأقرانُ بين العساكرِ

أنا الحاجبُ المنصورُ من آل عامرٍ بسيفي أقُدُّ الهامَ تحتَ المغافرِ

تِلادُ أميرِ المؤمنين وعبدُهُ وناصحُه المشهودُ يومَ المفاخرِ

فلا تحسبوا أنّي شُغلتُ بغيرِكم ولكنْ عَهِدْتُ اللهَ في قتلِ كافرِ

وبعد انقطاع الدعوة الأموية في قرطبة باستيلاء الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور عليها ، بقي أمل الأمويين في العودة إلى سيطرتهم ونفوذهم ، كما بقيت معهم مشاعر الفخر الدائم بنسبهم لمروان بن الحكم ، فها هو ذا محمد بن عبد الملك والد آخر خلفاء بني أمية بالأندلس المرتضى والمعتد ، يقول مفتخرا [3]:

ألسنا بني مروان كيف تبدلتْ بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدّوائرُ

إذا ولدَ المولودُ منّا تهلَّلَتْ له الأرضُ واهتزتْ إليه المنائِرُ

---

1 نفح الطيب : 414/1-416

2الحلة السيراء : 275/1-276

[3]الحلة السيراء 209/1

المحاضرة الثامنة

شعر الفخر والحماسة في الأندلس (2)

خفت صوت الحماسة والفخر في عهد ملوك الطوائف ، وانطوت أقلام الشعراء على مديح هؤلاء الحكام بما لا يتسمون به من صفات الحكمة والشجاعة والحزم والإرادة وغيرها من سمات البطولة الحقّة التي تفضي إلى النصر والتوحد ، وليس لهم من الأمر إلا دفع الجزية لملوك النصارى ، والتسلُّط على أراضي إخوانهم المسلمين ، مستعينين بعدوهما المشترك ، مقتطعين له ما يريد من مال أو أرض أو حصن أو قلعة ، إلى أن « ذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار »[1].

وقد حاول الشاعر ابن اللبانة الداني أن يظهر بطولة حاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس حين مدح قتاله قوما من الجناة العصاة في بلاد الجوف ، وإخضاعهم تحت إمرته بفضل جيشه الباسل المغوار ، الذي اندفع يقاتل بحماسة منقطعة النظير[2]:

مضيتَ حُسَامًا لا يُفَلُّ له غَرْبُ ... وأُبْتَ غَمامًا لا يُحَدُّ له سَكْبُ

وأصبحْتَ من حاليك تقسِمُ في الوَرَى ... هِباتٍ وهَبَّاتٍ هي الأمْنُ والرُّعْبُ

رغى فوقهم سقبُ العُقابِ فأصبحوا نشاوى من البلوى كأنّهم شَرْبُ

ويتفاوت ملوك الطوائف فيما بينهم قوة وضعفا ، وبقاء وزوالا ، كما تتفاوت أحجار الشطرنج على الرقعة ، غير أن دولة بني عباد كانت أكثر ممالك الطوائف سعة وقوة وعدلا ، رغم أن حاكمها المعتضد بن عباد كان كغيره من ملوك الطوائف يدفع الجزية لفرناند ، إلا أنه

---

1 ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص144.

[2] ابن اللبانة . أبو بكر محمد بن عيسى ، ديوان ابن اللبانة الداني ، تحقيق محمد مجيد السعيد ، ط2 دار الراية ، عمان ،الأردن 2007م : 29-30

كـان " قطـب رحـى الفتنـة ومنتهـى غايـة المحنـة ، جبـارا متهـورا لا يـؤمن شـره ولا يخطـئ سـهمه " وقد قال مفتخرا [1] :

حَمَيْتُ ذِمارَ المجدِ بالبيضِ والسُّمْرِ ... وقَصَّرْتُ أعْمارَ العداةِ على قَسْرِ

ووسَّعْتُ سُبْلَ الجودِ طبْعا وصَنْعَةً ... لأشياءَ في العلياءِ ضاقَ بها صَدْري

وعندما طالت يده واتسعت بلاده وكثر عديده وعدده ، وظفر بحصن رندة قال متحمسا [2]:

سأُفْني مُدَّةَ الأعدا ... ءِ إن طالتْ بيَ المدَّهْ

وتَبلَى بي ضَلالَتُهم ... ليَزدادَ الهُدى جِدَّه

فكَمْ من عِدَّةٍ قتلـ ... تُ منْهم بَعدَها عِدّه

نظمتُ رؤوسَهم عِقْدا ... فحلَّتْ لبَّةَ السُّدَّه

ثـم خلفـه ابنـه المعتمـد بـن عبـاد ، الـذي كـان فارسًـا شـجاعًا ، اسـتطاع قمـع العـدا ، والجمـع بـين البـأس والنـدى ، ولـه فـي الأدب بـاع وسـاع ، يـنظم وينثـر ، حتـى لـم يكـن فـي ملـوك الأنـدلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة [3]، ومن فخره قوله[4]:

أنا عُبيدٌ معدٌّ لحسم داءِ الأعادي

واعتادت النفسُ مني تصيُّدَ الآسادِ

أكرُّ بالضرب فيها والطّعنِ عندَ الجِلادِ

حتى أَبَحتُ حِماها بمرهفاتٍ حدادِ

بحق لخمٍ وطيٍّ وكندةٍ ومرادِ

---

[1] الحلة السيراء : 43/2

[2] –50 الحلة السيراء : 49/2

[3] الإحاطة : 109/3

[4] [4] ابن عباد . أبو القاسم محمد ، ديوان المعتمد بن عباد ، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1951 : 35

إن لم نكن أُسدَ غيلٍ نكُن جآذِرَ وادِ

ويُذكر أنه حين علم بدخول المعتدين مدينته ، ركب في أفراد من عبيده ، وعليه قميص يشف عن بدنه ، والسيف منتضًى بيده ، وانطلق بشجاعة وبسالة ، وقتل فارسًا منهم ، فردهم على أعقابهم ، وأمر بإغلاق باب المدينة عائدا إلى قصره[1]، وفي ذلك يقول[2]:

إنْ يسْلُبْ القومُ العِدا مُلْكي وتُسْلِمْني الجموعُ
فالقلبُ بين ضُلوعِهِ لمْ تُسْلِمِ القلبَ الضُّلوعُ
قد رُمْتُ يومَ نِزالِهِم ألا تحَصِّنَني الدروعُ
وبَرَزْتُ ليس سوَى القميصِ على الحشا شيءٌ دَفوعُ
أجلي ، تأخَّرَ لم يكنْ بهواي ذلّي والخضوعُ
ما سِرتُ قطُّ إلى القتا لِ وكان من أملي الرّجوعُ
شيَمُ الأُلى أنا منهمُ والأصلُ تتْبَعْهُ الفروعُ

وكذلك وزيره أبو بكر بن عمار ، الذي نشأ فقيرا عصاميا ، غير أن استحسان المعتضد بالله لشعره ، بدّل حاله وحسّن حظه ، وقربه من ابنه المعتمد ، فصار صديقه الحميم وخلّه القريب ، ولم يزل المعتمد يعدّه لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية إلى أن بلغ شأنا عظيما[3]، ومن قوله مفتخرا [4]:

كيفَ التَّخلُّصُ بالخديعةِ مِن يَدَيْ رَجُلِ الحقيقةِ مِنْ بَني عمَّارِ
رَجُلٌ تطعَّمَهُ الزَّمَانُ فجاءهُ طَرَفينِ في الإحلاءِ والإمرارِ

---

[1] الإحاطة : 64/2

[2]ديوان المعتمد بن عباد: 88-89

[3]المعجب : 80-81

[4]الجراوي . أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، الحماسة المغربية ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق 1991م :771/1-772

ولعل خير صورة تمثل أنبل موقف لملوك الطوائف ، تلك الصورة التي نحس فيها وعيَ وإدراكَ الواقع المرير والضعف المستكين الذي ألمَّ بكافة الممالك الأندلسية ، وقد تبناها المعتمد بن عباد ، فدعا إلى الوحدة والائتلاف أمام الخطر الصليبي المشترك ، وسعى إلى استقدام ملك المغرب ، يوسف بن تاشفين ، بمساعدة عمر المتوكل حاكم بطليوس وعبد الله الصنهاجي حاكم غرناطة ، فكانت معركة الزلاقة [1]، وكان الانتصار الساحق لجيوش المسلمين الذين خرجوا ببطولة وإيمان ، عازمين على النصر والإقدام ، وقد ترأس ابن عباد جيشه ، فسار بالنصر متفائلا ومتحمّسا ومنشدا [2]:

غَزوٌ عليكَ مُبارِكٌ في طيِّهِ الفتحُ القريبْ
لله سَيفُك إنَّه سُخطٌ على دينِ الصَّليبْ
لا بُدّ من يومٍ يَكو نُ لهُ أخٌ يومَ القليبْ[3]

وقد أعز الله المسلمين في هذه المعركة ونصرهم نصرًا لا كفاء له ، واستطاعوا استرداد مدينة بلنسية ، وراح الشعراء يوثقون هذه الموقعة بقصائد حماسية ، وقد أطلقوا عليها " يوم العروبة "، فجاءت مجسِّدة لواقع ما جرى من أحداث ، وموافقة لانفجارات النفوس واصطخابات القلوب .

وبعدها خاض يوسف بن تاشفين معارك عديدة ، وحقق انتصارات ساحقة بفضل بطولته وحنكته وتنظيمه جيشا موحَّدا مخلصا له متعلقا به رغم اختلاف مشاربه ، كما نال ثقته فقاده أنّى شاء ومتى شاء لرد الأعداء وقهر المتمردين وصد هجمات الصليبيين . وقد خلفه ابنه أبو الحسن علي في إدارة الجيش فسار على نهج أبيه ، وحقق نصرا عظيما في معركة أقليش

---

[1] المعجب : 91

[2] ديوان المعتمد : 53

[3] يوم القليب : يوم بدر

سنة (501هـ) وقد ذكرها الأعمى التطيلي في قصيدة له مشيدا بحماسة الجيش الإسلامي وبسالته وإقدامه [1]:

سل الرومَ في أُقليشَ يومَ تجايشوا ألم يعلموا أن الفرائسَ للأسدِ

تبارَوا إلى تلك الحُتوفِ فسلْهُمُ أما كان عنها من محيصٍ ولا بُدِّ

ألم يكُ في الإسلامِ من مُتَعَرِّضٍ بكفٍّ ولا في السَّلمِ من عَرَضٍ يفدي

ولا في جنودٍ حين أتتكمُ لها من قديرٍ يدفعُ الهزلَ بالجدِّ

غداة رماكمْ كلُّ طَوْدٍ بمثلِهِ من القَصَبِ المنْأَدِّ والحَلَقِ السَّرْدِ

واستمر شعر الحماسة يرافق الأبطال ويوثق المعارك والانتصارات ، فنجده في عصر الموحدين يرافق عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ، وقد ساءت أحوالها نهاية العهد المرابطي ، وكان " يوما مذكورا مشهورا ، ظهرت فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان " [2]، وقد أشاد جماعة من أقطاب الشعر في المغرب والأندلس بهذا اليوم التاريخي ، من مثل أبي بكر بن المنخل الشلبي الذي قال قصيدة في هذه المناسبة منها [3]:

فَتَحْتُمْ بلادَ الشّرقِ فاعتمِدوا الغَرْبا فإنّ نسيمَ النصرِ بالفتحِ قَدْ هبّا

أصرتُمْ إليه الخيلَ وهي أجادلٌ فسالتْ بكم بحرًا وطارتْ بكم ركْبا

ودُستُمْ بها هاماتِ كلّ مضلّلٍ ولم تتركوا عُجْما هناك ولا عُرْبا

رمَيتُمْ بها مثلَ السّهامِ فأصبحتْ كُماتهم صَرْعى وأموالُهم نهْبا

---

[1] ديوان الأعمى التطيلي ، أبو العباس ، أحمد بن عبد الله ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1980 م : 26

[2] ابن صاحب الصلاة . عبد الملك بن محمد ، المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الأندلس ، بيروت 1964 : 147/2

[3] المن بالإمامة : 151/2-153

وقد أتبع عبد المؤمن هذا اليوم بأيام أخرى ، كان من شأنها أن تشفي صدور المسلمين، وتدمي قلوب الكافرين ، فجهز جيشا ضخما من الفرسان المتمرسين بفنون القتال ، وخاض معركة حامية الوطيس قال فيها بحماسة وقوة وبسالة [1]:

ولا بدّ من يوم أغرَّ محجّلٍ يُسيلُ دماءَ الكفرِ في كلّ مذنبِ

ونشفي صدورَ المؤمنين بغزوةٍ تكون على حُكْمِ الحسام المدرّبِ

ويغزو بلاد الروم جيشٌ عرمرمٌ تُخُيِّرَ من قيسٍ وأبناء يعرُبِ

وفي الأبيات إشادة قوية بالعرب الذين جازوا إلى الأندلس لقتال الصليبيين ، فكثيرا ما كانت هذه القبائل العربية[2] تشارك في المعارك الإسلامية حتى شكّلت فئة أساسية في الجيش الموحدي ، كما اتبع الموحدون سياسة المداراة والملاطفة والإحسان تجاه العرب القاطنين إفريقية، الأمر الذي دفعهم إلى بذل ما في وسعهم لإرضائهم وإخلاص الطاعة لهم [3].

وحين انتصر الجيش الموحدي في غزوة الأراك المشهورة بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، وقفل ظافرا غانما مفعما بروح الفخر والاعتزاز ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، ويشاركون في تدوين هذا النصر الإسلامي العظيم ، وكان منهم علي بن حزمون الذي عدّ هذا اليوم عرسا للمسلمين ومأتما للكافرين ، فقال [4]:

حيّتْكَ معطّرةَ النفسِ نفحاتُ الفتحِ بأندلسِ

فذر الكفّارَ ومأتمَهمْ إن الإسلامَ لفي عُرسِ

أإمام الحقِّ وناصرِهِ وطهَّرْتَ الأرضَ من الدنسِ!

وملأتَ قلوبَ النّاس هُدى فدنا التوفيقُ لملتمسِ

---

[1] المن بالإمامة : 125/2

[2] ترجع أصول القبائل العربية هذه إلى حركة الفتوح الإسلامية الأولى ، وإلى العرب الذين نقلهم الفاطميون في القرن الخامس من مصر إلى إفريقية ، وهم من بني هلال وبني سليم وعرب المعقل . (تاريخ ابن خلدون : 28/6-37)

[3] البيان المغرب : 208/3

[4] المعجب : 213

وكـذلك شـارك الشـاعر أبـو العبـاس الجـراوي فـي الإشـادة بهـذا الانتصـار العظـيم ، وسطّر حماسة الجيش الإسلامي وتحطيمه صفوف العدو وقتله الآلاف منهم ، فقال[1]:

هو الفتحُ أعيا وصفُهُ النظمَ والنثرا وعمَّت جميعَ المسلمين بهِ البُشرى

ألوفٌ غدت مأهولةً بهمِ الفَلا وأمسَتْ خلاءً منهُمُ دورُهُمْ قَفْرا

ودارَتْ رَحا الهيْجا عليهمْ فأصبَحوا هشيمًا طحينًا في مهبِّ الصِّبا يُذْرى

يطيرُ بأشلاءٍ لهم كلُّ قشعمٍ[2] فما شِئْتَ من نسر غدا بطنُهُ قبْرا

كـذلك عقـدت رايـات النصـر لملـوك بنـي نصـر فـي غرناطـة ، الـذين اسـتطاعوا ببطولـة وإصـرار اسـترجاع ملكهـم ، ولملمـة شـمل المسـلمين المهـاجرين مـن مـدنهم التـي سـقطت ، فجمعـوا المهـارات والكفـاءات ، وبرعـوا فـي كـل الميـادين ، وصـمدوا أمـام الغـزاة ، وجاهـدوا فـي سـبيل الله مـن أجـل حيـاة عزيـزة أبيـة ، فهـا هـو ذا أبـو عبـد الله محمـد بـن قـيس ، ثالـث ملـوك بنـي نصـر ، قـد قـال مفتخرا [3]:

يُرهفُ سيفي في الوغى متسلطًا ويُتقى عزمي إذا ما أُرْهِفا

وتُرتَجي يُمنايَ يومَ النَّدى تخالُها السُّحب غدت وُكفا

نَحن ملوكُ الأرض مَنْ مثلُنا حُزنًا تليدَ الفَخرَ والمِطْرَفا

نُخافُ إقدامًا ونُرْجى نَدًى لله ما أَرْجَى وما أَخوَفا

لي رايةٌ في الحربِ كمْ غادَرتْ ربعَ العِدا قاعًا بها صَفْصَفا

---

[1] الجراوي . أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، ديوان الجراوي ، علي إبراهيم كردي ، دار سعد الدين ، دمشق 1994م : 90-92

[2] قشعم : المسن من النسر (لسان العرب : مادة قشعم)

[3] 546 الإحاطة : 317/1

كما نجد الشاعر ابن الجياب الغرناطي يفخر بملوك بني نصر ، فيشيد ببطولاتهم وإقدامهم في ساحات القتال ، فهم فرسان شجعان ، سيوفهم قاطعة ورماحهم طويلة ، تصيب الأعداء ، وتحمي الذمار ، وتهدي الضالين ، يقول[1]:

ولأرضِ أندلسٍ مفاخرُ أنتمُ أربابَها أضْفيتُمُ سِرْبالَها

فحميتمُ أرجاءَها وكفيتُمُ أعداءَها وهديتمُ ضُلّالها

فبآلِ نصرٍ فاخرتْ لا غيرهم لم تَعتمدْ من قبلهِم أقيالَها

كانت مملكة غرناطة على أهبة الاستعداد لمواجهة أي خطر يهدد سلامة أراضيها ، وكان لها جيشها المستعد دائما للذود عنها وصدّ هجمات النصارى المتلاحقة على حصونها وثغورها ، وقد استعرض لنا الشاعر محمد بن الشديد قوة الجيش الغرناطي زمن الملك أبي الحجاج يوسف الأول وبطولته وحماسته ومواقفه الباسلة التي أخافت الأعداء وهددت أمنهم وحياتهم ، فقال ناطقا بلسان الجيش المغوار[2]:

فنحن همُ ، وقلْ لي مَن سوانا لنا التَّقديمُ قدْمًا والكلامُ

لنا الأيدي الطِّوالُ بكلِّ صوْبٍ يُهَزُّ به لدى الرَّوعِ الحسامُ

ونحن اللابسونَ لكلِّ درعٍ يُصيبُ السُّمرَ منهنّ انثلامُ

بأندلسٍ لنا أيامُ حربٍ مواقفُهُنّ في الدّنيا عظامُ

وتحتَ الرّايةِ الحمراءِ منّا كتائبُ لا تطاقُ ولا ترامُ

ولم تفق بطولة وحماسة جيش أبي الحجاج جيش نظيره من بعده الغني بالله محمد الخامس، فهو قائد بطل يرهب الأعداء بجيشه المغوار الشاكي السلاح ، الذي يتقدم بجموعه

---

[1] نفح الطيب : 438/5

[2] نفح الطيب 238/6-239

الغفيـرة ، فـيملأ الأرض ويثيـر النقـع ، ويجـاري الريـاح فيسـبقها ، ويبـاري البـروق فيغلبهـا ، وفـي ذلك قال ابن زمرك قصيدة يمدح الغني بالله [1]:

كم موقفٍ تُرهبُ الأعداءُ موقعَه والخيلُ تُردي ووقعُ السُّمرِ يُرْديها

ثارتْ عجاجتهُ واليومُ محتجبٌ والنَّقعُ يؤثرُ غيمًا من دياجيها

وللأسِنَّةِ شُهبٌ كلما غربتْ في الدارعينَ تجلّتْ من عواليها

وللسّيوفِ بروقٌ كلَّما لمعتْ تزجي الدماءَ وريحُ النّصرِ يُزجيها

وهكـذا توالـت الانتصـارات علـى أيـدي هـولاء الحكـام الأقويـاء إلـى أن تقلـد زمـام الأمـر حكـام ضـعاف ، شـغلتهم أملاكهـم ونسـاؤهم عـن الجهـاد والـذود عـن الحمـى ، فبـاعوا انتصـارات سـابقيهم بـثمن رخـيص ، وأضـاعوا الحمـراء وسـلموا المفتـاح ، غيـر أن البطولـة عـينٌ لا تنضـب ، والبطـل لا يخلـو منـه عصـر يحتاجـه أوشـعب يناديـه ، فـلا بـد مـن مُلـبٍّ نـداءه ، سـواء حقـق الغايـة المرجـوة أم لا ، فهـا هـو ذا موسـى بـن أبـي غسـان ، يقـرر الـدفاع وحيـدا عـن أرضـه ووطنـه ، بعـد حصـار دام سـبعة أشـهر ، عـانى فيـه الشـعب الغرنـاطي مـن الجـوع والحرمـان والمـرض ، وأُعيـد النظـر فـي موقـف سياسـة الحمـراء ، وأقـر المـلأ التسـليم إلا موسـى بـن أبـي غسـان رفـض قـائلا بحـزم :"لنقاتـل العـدو حتـى آخـر نسـمة ، وإنـه لخيـر لـي أن أحصـى بـين الـذين مـاتوا دفاعًـا عـن غرناطـة مـن أن أحصـى بـين الـذين شـهدوا تسـليمها.." كمـا أنـه تنبـأ بمـا سيصـيبهم إزاء هـذا التسـليم المهـين، وبمـا حـدث فـي محـاكم التفتـيش ، فقـال : " أمـا أنـا فـوالله لـن أراه" ، ثـم قـام بحماسـة وخـرج مجاهـدًا حتـى لقي حتفه حرا عزيزا وبطلا مقداما [2].

---

[1] نفح الطيب : 174/7

[2] عنـان . محمـد عبـد الله ، دولـة الإسـلام فـي الأنـدلس ، نهايـة الأنـدلس وتـاريخ العـرب المنتصـرين ، ط4 مكتبـة الخانجي ، القاهرة 1997 : 241

وهكذا رافق كلٌّ من شعر الفخر والحماسة البطل والأبطال في ساحات القتال وفي عهود القوة والانتصار ، يمجد صفاتهم ومآثرهم تارة ، ويصف معاركهم ووقائعهم تارة ثانية ، ويصور مواقفهم البطولية وفروسيتهم الحربية تارة أخرى ، فامتلأت دواوين الشعراء وكتب التاريخ والسيرة من مثل هذه الأشعار التي أغنت مادة الشعر العربي من جهة ، ووثقت الأحداث التاريخية من جهة أخرى .

المحاضرة التاسعة

رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي

رثاء المدن والممالك غرض امتاز بخصوصية أندلسية بارزة من بين الأغراض الأخرى، فقد امتد عبر حقبة زمنية طويلة وصلت إلى خمسة قرون، ويُعدّ فنًّا ذا تجربة ذاتية فردية ترصد تجربة جماعية عامة، فيها كثير من العواطف الإنسانية الصادقة والملتهبة المؤثرة، ولا أزعم أنه ابتداع أندلسي محض، بل وجد مثل هذا الفن في المشرق في عهود سبقته، مثل الشاعر أبو العباس الأعمى المكي(140هـ) الذي بكى الدولة الأموية حين قضى عليها العباسيون، قال[1]:

آمَتْ نساءُ بني أميةَ بعدهُمْ وبناتُهم بمضيعةٍ أيْتامُ

نامتْ جدودُهم وأُسْقطَ نجمُهمْ والنجمُ يسقطُ والجدودُ تنامُ

خلتِ المنابرُ والأسرةُ منهم فعليهم حتى المماتِ سلامُ

وكذلك سينية البحتري في إيوان كسرى حين زار أطلاله ووصف دولة الفرس ومجدها الحضاري، فوجد فيها معادلا موضوعيا لحزنه على حاله بعد مقتل المتوكل وما خلف ذلك من آثار، قال [2]:

صُنْتُ نَفْسِي عَمّا يُدَنّس نفسي وَتَرَفّعتُ عن جَدا كلّ جِبْسِ

فكَأنّ الجِرْمَازَ منْ عَدَمِ الأُنْـ سِ وإخْلالهِ، بَنيّةُ رَمْسِ

لَوْ تَرَاهُ عَلمْتَ أن اللّيَالي جَعَلَتْ فيهِ مأتَماً، بعد عُرْسِ

---

[1] أبو فرج الأصبهاني ،الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر ، بيروت ط2 ، د.ت : 324/16

[2] البحتري. الوليد بن عبيد، ديوان البحتري ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، دار الكتب العلمية،بيروت2017م : 72/1

كما أن أصل هذا الغرض الشعري يمكن أن يعود بشكل ما إلى بواكير الشعر العربي حين وقف الشاعر على الأطلال باكيا تارة ، ونادبا الآثار البالية الداثرة تارة أخرى ، والأمثلة كثيرة على ذلك .

نشأة فن رثاء المدن والممالك في الأندلس

كان لفن رثاء المدن والممالك في الأندلس طابع متميز، وأصبح غرضا متفردا له دوافعه وغاياته وخصائصه ومقوماته، ومنهجه وأساليبه، ولا يمكن لنا أن ندرك هذا الفن في الأندلس إلا إذا تعرفنا على الحضارة الأندلسية وما بلغته من شأن عظيم ودرجة راقية حتى أصبحت منارة أوربا آنذاك، ولعل أبيات ابن خفاجة تختصر لنا ما وصل إليه الأندلسيون في ظل دولتهم، بقوله [1] :

يَأَهلَ أَندَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ماءٌ وَظِلٌّ وَأَنهارٌ وَأَشجارُ

ما جَنَّةُ الخُلدِ إِلّا في دِيارِكُمُ وَلَو تَخَيَّرتُ هَذا كُنتُ أَختارُ

لا تَختَشوا بَعدَ ذا أَن تَدخُلوا سَقراً فَلَيسَ تُدخَلُ بَعدَ الجَنَّةِ النارُ

وعندما تغير ميزان القوى في الأندلس ، لا سيما بعد سقوط دولة الخلافة وتلاشي نفوذ العامريين، وكما نعرف أن عصري الخلافة الأموية ودولة بني عامر مثلا العصر الذهبي في تاريخ الأندلس ، فكانت القوة الغالبة التي ردت عدوان ملوك النصارى وتحت ظلها ساد الأمن والسلام وعم الرخاء وانتشرت العلوم، لذلك تعد أول الممالك التي رثاها الشعراء بقصائد حملت مشاعر حزن وألم وتفجع على الملك الضائع والمصير المؤلم الذي لم يعوّضه أحد من الحكام اللاحقين ، وكان أكثر ما يثير نفوس الأندلسيين عامة والشعراء خاصة رؤية معالم الزهراء الخربة ، وكان منهم الشاعر محيي الدين بن عربي الذي قال أبياتاً يذكّر بها العاقل، وينبّه الغافل، وهي[2]:

---

[1] المقري. محمد بن علي، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت: 680/1

[2] نفح الطيب: 144/5

ديارٌ بأكنافِ الملاعبِ تلمَعُ وما إنْ بها مِن ساكنٍ وهْي بَلقعُ

ينوح عليها الطير من كل جانب فتصمت أحياناً وحيناً تُرَجِّعُ

فخاطبتُ فيها طائراً متغرّداً له شجنٌ في القلب وهْو مُروّعُ

فقلت: على ماذا تنوحُ وتشتكي؟ فقال: على دهرٍ مضى ليس يَرجعُ

لقد انطلقت الفتنة الهوجاء فهدمت ما بناه الأمويون والعامريون من أمجاد، وقد تمخض عن هذه الفتنة انقسام الدولة الإسلامية الواسعة إلى دويلات متفرقة ، حكمها ملوك تهاونوا في الدفاع عن مصالح البلاد والعباد ، وانغمسوا باللهو والمجون والملذات ومصالحهم الخاصة ، حتى وصفهم أبو الحسن بن الجد [1]:

أرى الملوكَ أصابتهم بأندلسٍ دوائرُ السوء لا تُبقي ولا تذرُ

ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدرٌ هوى بأنجمهم خَسْفا وما شعروا

وكيف يشعرُ مَن في كفّه قدحٌ تحدو به مذهلاتُ الناي والوترُ

صُمّت مسامعُه مِن غير نغمته فما تمرُّ به الآيات والسورُ

وقول ابن رشيق القيرواني فيهم أيضا[2] :

مما يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ سماعُ مقتدرٍ فيها ومُعْتضِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها كالهرَّ يحكي انتفاخاً صَوْلةَ الأسدِ

وهكذا نشب بين الممالك تنافس شديد أضعف قواها وأنهك قدراتها حتى غدت فريسة سهلة أمام مطامع مملكة قشتالة وما يجاورها من ممالك النصارى التي أخذت تقوى وتتسع رقعتها وتمتلك زمام المبادرة

---

[1] عباس. إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، ط5، دار الثقافة، بيروت1978م: 149/1

[2] المراكشي. عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق : صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت2006م: 59/1

والاعتداء من خلال قبض النصارى ثمن مساعدتهم لملوك الطوائف بعضهم ضد بعض عددا من القلاع والحصون المهمة ، الأمر الذي سهل سقوط مملكة طليطلة بيد ألفونسو السادس ملك قشتالة عام 487هـ .

سقوط الممالك الأندلسية ورثاء شعرائها

كان سقوط طليطلة أكبر ضربة وجهت إلى المسلمين لأهمية مكانتها السياسية والمعنوية في نفوس المسلمين والنصارى على حد سواء ، فهي عاصمة القوط قديما، وأمنع المدن الأندلسية من حيث الموقع والحصانة وقاعدة الثغر الأوسط الأندلسي، وقد رثاها الشعراء بحرقة ولوعة، منهم أبو الوليد هشام بن أحمد الوقش الطليطلي، يقول[1]:

لِتَكْلِكِ كيف تبتسمُ الثغورُ سروراً بعدما سُبِيَتْ ثغورُ

لقد قُصِمَتْ ظهورٌ حين قالوا أميرُ الكافرينَ لهُ ظهورُ

أليس بها أبِيُّ النفسِ شهمٌ يُديرُ على الدوائرِ إذ تدورُ

طليطلةٌ أباحَ الكفرُ منها حِماها، إنَّ ذا نبأٌ كبيرُ

فليس مثالَها إيوانُ كسرى ولا منها الخَورْنَقُ والسديرُ

وبعد طليطلة أخذت الدويلات بالتساقط والمدن والمعاقل والقلاع الواحدة تلو الأخرى لأسباب عدة سياسية واقتصادية واجتماعية لا مجال لذكرها في هذا الموضع.

ومنها مدينة بلنسية التي بكاها أبو المطرف بن عميرة بحرقة ولوعة شديدتين[2]:

ما بالُ دمعكِ لا يني مِدرارُهُ أم ما لقلبك لا يقرُّ قَرارُه

أللوعةٍ بين الضلوع لظاعنٍ سارت ركائبُه وشطت دارُه

---

[1] نفح الطيب: 483/4

[2] عنان.محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، ط4. مكتبة الخانجي، القاهرة1990: 454/4

بحرٌ من الأحزان عبَّ عَبابُهُ وارتج ما بين الحشا زخّارُه

في كلِّ قلبٍ منه وجْدٌ عنده أسفٌ طويلٌ ليس تخبو نارُهُ

أما بلنسيةٌ فمثوى كافرٍ حفَّتْ به في عُقرِها كُفّارُهُ

وكذلك مدينة شنترين إحدى قواعد بطليوس المهمة سقطت بأيدي البرتغاليين ، فرثاها كثير من الشعراء منهم محمد بن إبراهيم فقال[1] :

يا شنترينُ ولا أنادي سامعا ألقت عليك بلاءها الأقدارُ

وتبدلت فيكِ العمارةُ وحشةً والأمن خوف والغنى أقتارُ

حتى أقول بنغمة يا بلدة لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ

وغير ذلك من الممالك والمدن والثغور وقواعد الأندلس في الشرق والغرب والجنوب التي سقطت بأيدي النصارى فرثاها شعراؤها رثاء حزينا مفعما متأثرا بألم الفقدان وحرقة الفؤاد منها لورقة والمرية ورندة ومرسيّة وشاطبة وقرطبة وجيان ، ثم إشبيلية التي كان لسقوطها وقع عظيم في نفوس الأندلسيين ،فقد كانت أعظم ممالك الطوائف وأقواها وأكثرها نفوذا ، وبلاطها من ألمع البلاطات وأبهاها ، استقطب أشهر شعراء العصر، وأعظم علمائه ، لما امتاز به أميرها المعتمد بن عباد من معرفةٍ بفنون الأدب، وتمرُّسٍ في نظم الشعر، وإتقان لأصول النقد، وما عرف عنه من سماحة طبع وجود يد ، وقد رثاها الشاعر أبو البقاء الرندي بأبيات حزينة تبكي العيون وتدمي القلوب معنى ومبنى ، يقول [2]:

لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تمَّ نُقصَانُ فلا يُغرَّ بطِيبِ العَيشِ إنسانُ

هيَ الأمورُ كما شاهدتُها دُولٌ من سرّه زمنٌ ساءتهُ أزمانُ

---

[1] البيان المغرب: 233/4

[2] نفح الطيب: 487/4

وَهَذِهِ الدَّارُ لا تبقِي على أحدٍ ولا يدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شانُ

وهكذا توالى سقوط المدن الأندلسية، ولم يبق من دولة الإسلام سوى مملكة صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، عُرفت بمملكة غرناطة، وحكمها بنو الأحمر ، واستطاعت أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وباستيلاء ابن الأحمر على غرناطة ، انحسر رثاء الممالك فيها حتى تلاشى، ولم نعد نرى ممالك متناثرة حتى انقض على الأندلس الملكان الكاثوليكيان:"فرديناند" و"إيزابيلا"، وحاصراها بقواتهما 897هـ، 1491م حصارا شديدا، وقطعا أي اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى؛ حتى استسلمت المدينة، وسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس[1].

---

[1] الحجي.عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ط2 دار القلم ، دمشق-بيروت1981م:568-573

المحاضرة العاشرة

موضوعات شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس

الحق أن فن رثاء المدن والممالك كان قد ارتبط بموضوعات شعرية أخرى دعت إليها الحاجة والواقع الراهن، من هذه الموضوعات:

1- الدعوة إلى الجهاد

حين أبدى ملوك الطوائف الخنوع والتخاذل أمام أطماع النصارى ، ثار المخلصون من الأندلسيين ورفضوا قبول الوضع المخزي، وتوجهوا بشعرهم يحضون حكامهم على الجهاد والوقوف في وجه العدو، منهم أبو حفص الهوزني، الذي خاطب ابن عباد في إحدى رسائله يستثيره ويستنهض همته قائلا [1]:

أعبّادُ ضاقَ الذّرعُ واتّسعَ الخرقُ ولا غربَ للدنيا إذا لم يكنْ شرقُ

إليك انتهتْ آمالُنا فارمِ ما دَهَى بعزمك يدمغُ هامةَ الباطلِ الحقُ

2- الاستغاثة والاستصراخ:

كان الشعر من أهم وسائل الاستغاثة ورسولها الفصيح الذي ينطلق عبر الأسوار، يخترق الحصار، ويجوب البحار، ليصل إلى نفوس المستغاث بهم ، فيشحذ الهمم ويوقد الحماسة والإقدام . فكانت أول ما توجهت الأنظار إليهم هم أهل العُدْوةِ في المغرب وإفريقية.

وبالفعل نجح الشعراء في القيام بدور الصرخة الأندلسية المستغيثة فكان أول من استجاب إلى غوث الأندلسيين هم المرابطون، الذين حققوا نصر الزلاقة الحاسم وذلك إثر دعوة المعتمد بن عباد ، ومن ثم غدا أمر الاستغاثة بملوك المغرب سنة عند الأندلسيين كلما ضاق الأمر بهم واشتد أذى النصارى عليهم.

---

[1] عباس . إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، ط5 دار الثقافة، بيروت1978م: 180

ولعل أكثر من ألحّ في طلب الإغاثة ونجدة المغاربة شعراء بلنسية ، فقد أرهقهم الحصار العنيف، وطالت مقاومتهم ، فانطلق أبو عبد الله بن الأبّار مبعوثا من قبل أمير بلنسية إلى أبي زكريا الحفصي أمير الدولة الحفصية في تونس مستغيثا به وحاملا إليه بيعة أهل بلنسية ، وأنشد بين يديه سينيته الرائعة المشهورة[1]:

أدرِك بخيلِك خيلِ الله أندلسا إنَّ السبيلَ إلى منجاتِها دَرَسا

وهَبْ لها من عزيزِ النّصر ما التمست فلم يزل منك عزُّ النصرِ مُلتمَسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مَسا

يا لَلجزيرةِ أضحى أهلُها جزرًا للحادثات وأمسى جدُّها تَعِسا

وكان شاعر الاستغاثة والاستصراخ كثيرا ما يعمد إلى جوانب عدة يستثيرها عند المستغاث به كي تساهم في عملية الإقناع والموافقة على الإغاثة ، من مثل :

أ- مديح المستغاث به

فلا بد أن يتصف المستغاث به بصفات سامية عظيمة تخوله القيام بهذا الواجب العظيم المتمثل في الدفاع عن المسلمين والذود عن أرضهم ، كما في قصيدة ابن الأبار الذي توجه بالمديح إلى السلطان بعد أن طلب الغوث ، فقال[2]:

نادتك أندلس فلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

ملك أمدّ النيِّرات بنوره وأفادها لألاؤه لألاءها

[1] نفح الطيب: 457/4

[2] الناصري. أحمد بن خالد، شهاب الدين، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري وزميله، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت : 199/3

خضعت جبابرة الملوك لعزّه ونضَت بكفّ صغارها خيلاءها

كالطود في عصف الرياح وقصفها لا رهْوها يخشى ولا هوجاءها

كالغيث صبّ على البسيطة صوبه فسقى عمائرها وجاد قواءها

ب–استثارة النزعة الدينية

فالحروب في الأندلس هي حروب صليبية ذات صبغة دينية مقدسة ، ألهبت المشاعر وأشعلت الحماسة في القلوب، فاندفعت جموع الأعداء المتطوعين من كل مكان تشارك في هذه الحروب المقدسة، وتضمن الغفران والجنة ، وتهدف إلى إبادة المسلمين ، ولم يقف المسلمون أمام هذا الفيض الديني من قبل أعدائهم مكتوفي الأيدي ، فاندفعوا يذكون الحماسة الدينية في النفوس ، ويثيرون الغيرة والحمية في المشاعر ، ويعدون كل نصر نصرا للإسلام وفتحا من فتوحه ، لذا نجد الشعراء في رثائهم المدن الزائلة يحزنون أشد الحزن لتحول مساجدهم إلى كنائس ، ويبكون أحر البكاء لتبديل صوت الأذان بقرع النواقيس ، ومن ذلك قول الرندي [1]:

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسفٍ كما بكى لفراقِ الإلف هيمانُ

على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٌ قد أقفرتْ ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما فيهنَّ إلاّ نواقيسٌ وصلبانُ

حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابرُ تبكي وهي عيدانُ

ج– استثارة النزعة الأخوية :

فالأندلسيون والمغاربة أخوة في الدين والدم ، وقد أكد ابن المرابط ذلك حين قال[2]:

[1] دولة الإسلام في الأندلس: 101/5

[2] م.نفسه: 483/4

أفلا تذوب قلوبكم إخواننا مما دهانا من ردًى أو من ردِي

أكذا يعيث الروم في إخوانكم وسيوفكم للثأر لم تتقلدِ

د- استثارة نزعة الجيرة أو الجوار

فالجار أولى بالعون والمساعدة ، وهو حق له مشروع ، يقول ابن هارون مؤكدا على حق الجوار [1]:

ماذا يبطئكم عنا وحق لكم أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما

وحقنا واجب فالدين يجمعنا مع الجوار الذي ما زال منتظما

هـ - استثارة العصبية العربية :

في كثير من الأحيان كان يعمد المستغيث إلى بعض القبائل العربية في عدوة المغرب يناشدها للقدوم إلى الأندلس والمشاركة في جهاد العدو، وقد عرفت هذه القبائل بشدة المراس وقوة الشكيمة والثبات وكثرة العدد والعتاد . من ذلك قول ابن طفيل[2] :

ألا فابعثوها همّة عربية تحفُّ بأطراف القنا والقواضبِ

أفرسانَ قيسٍ من هلالِ بن عامرِ وما جمعتَ من طاعنٍ ومضاربِ

لكم قبةٌ للمجد شُدّوا عِمادها بطاعةِ أمرِ الله من كل جانب

فقوموا بما قامت أوائلكمْ به ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

و- استثارة النزعة الإنسانية:

وهي النزعة العامة الشاملة التي تسيطر على نفوس البشر جميعا في كل زمان ومكان ، على تنوع المذاهب والأديان ، فصور المدن الجميلة التي كانت تضج بالحياة والحركة أصبحت خرابا ، سكانها الأعزاء

---

[1] م. نفسه:60/4

[2] م. نفسه

أضحوا عبيدا يباعون ويشترون ، علاقة الأم بطفلها حين يتفرقان تفرق الروح للبدن ، الفتاة الحسناء التي تقاد إلى المكروه أمام مرأى والديها اللذين لا يملكان الدفاع عنها أو تخليصها من يد الأوغاد ، كل هذا الموات يشد أعمق المشاعر الإنسانية، يقول أبو البقاء الرندي مستثيرا هذه النزعات الإنسانية[1] :

أعندكم نبأٌ من أهلِ أندلُسٍ فقد سرى بحديثِ القومِ ركبانُ

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفرِّ عُبدانُ

يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ

وطفلةٌ مثلُ حسنِ الشمسِ إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً والعينُ باكيةُ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

3- الحكمة والوعظ:

ومن الموضوعات التي ارتبطت بفن رثاء المدن والممالك الحكمة والوعظ، فعندما تخبو الانتصارات وتحل الهزيمة والخسارة، يجنح المحزون والمهزوم إلى التمثل والاعتبار، وإلى قول الحكمة، يقول أبو المطرِّف بعد سقوط بطليوس مرسلا الحكم والمواعظ مواسيا ومعزيا:

ولم أر مثل الحق، أما طريقُه فأمنٌ، وأما جارُه فعزيزُ

إذا ما امرؤ آوى إليه فحصنُه حصينٌ ومأواه المباحُ حريزُ[2]

وفي النهاية لم يجد شاعر الرثاء سوى التسليم بقضاء الله وقدره ، موقنا أن المصائب والمحن قضاء وابتلاء من الله لاختبار قوته وصدق عزيمته، ويكفيه ما أخذ من عبرة وحكمة وتمرس، لقد أصبح التسليمُ

[1] دولة الإسلام في الأندلس: 50/5

[2] ابن الأبار، تحفة القادم، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986: 577

بالقضاء بعد الضعف والهوان بابَ العزاء الوحيد المفتوح أمام شعراء الرثاء في الأندلس، ومنهم الصنهاجي الذي سأختم الحديث بقوله[1] :

إنّا إلى الله والرُّجْعى لهُ وبهِ تعلَّقَ القلبُ في تصحيحِ إعلالِ

ليقضي الله أمرا كان قدّرهُ والأمر لله في قولٍ وأفعالِ

---

[1] نفح الطيب: 191/5

المحاضرة الحادية عشر

فن الموشحات الأندلسية

الموشح اصطلاحاً:

نلحظ بداية أن هناك تقارباً بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للموشحات، حيث يغلب على الظن أن تسمية الموشح استعيرت من الوشاح الذي تتزين به المرأة، فالموشح اسم مفعول يدل على أن الناظم قد وضع منظومته على شكل الوشاح وجعلها على نسق يراوح بين الأقفال والأغصان، وقد ذكر المحبي أنه "سمي موشحا؛ لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له"[1]، وهكذا سمي هذا النمط من النظم بالموشح؛ لما انطوى عليه من ترصيع، وتزيين، وتناظر، وصنعة، وغدت كلمة موشح أو موشحة مصطلحاً يحمل معنى محدداً لنمط معين من النظم لا يشمل منظومات أخرى مشابهة قد تتعدد فيها القوافي من مسمطات ومخمسات وغيرها[2].

وقد تعددت تعريفات الموشح قديماً وحديثاً، ففي القديم كان أول من عرّفه ابن سناء الملك، حيث قال: " الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقال له: التام، وفي الأقل من خمسة أقفال، وخمسة أبيات، ويقال له: الأقرع. فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات"[3].

---

[1] المحبي. محمد أمين بن فضل الحموي خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تح: محمد حسن إسماعيل ، دار صادر، بيروت: 1 / 108

[2] الدقاق.عمر ، ملامح الشعر الأندلسي، : 256

[3] ابن سناء الملك.هبة الله بن جعفر أبو القاسم،تح:جودت الركابي، دار الطراز في عمل الموشحات، دار الفكر، الثالثة: 1400 هـ - 1980: 32

وعرّفه الصفدي، فقال: "الموشح فنٌّ تفرد به أهل المغرب، وامتازوا به على أهل المشرق، وتوسعوا في فنونه، وأكثروا من أنواعه وضروبه... ورسم الموشح هو: كلام منظوم، على قدر مخصوص بقواف مختلفة"[1].

ومن تعريفات المحدثين: تعريف مصطفى عوض الذي عرف الموشح، فقال: "الموشح لون من ألوان النظم، ظهر أول ما ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية في القرن التاسع الميلادي، ويختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، وخروجه أحيانا على الأعاريض الخليلية، وبخلوه أحيانا من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة والأعجمية في بعض أجزائه، و باتصاله الوثيق بالغناء"[2].

والموشحات فن أندلسي النشأة، ففي أحضان البيئة الأندلسية المترفة "ولدت الموشحات، وتخلقت أنغامها في بيئة المغنيين والمغنيات، ووجدت رواجاً كبيراً في أوساط الأمراء والحكام، وكانت في حقيقتها تعبيراً عن شخصية الأندلس الفنية واستقلالها الأدبي كما كانت انعكاساً لما شاع في البيئة الأندلسية من ترف وتحضر"[3].

قال الزبيدي : " التوشيح: اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون، وهو فنّ عجيب له أسماط وأغصان وأعاريض مختلفة"[4].

قال ابن سناء الملك: " الموشحات مما ترك الأول للآخر، وسبق بها المتأخر المتقدم، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وغادر بها الشعراء من متردم، ملحة الدهر، وبابل السحر"[5].

قال ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنّا منه سمّوه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا

---

[1] توشيح التوشيح، صلاح الدين الصدفي، تح: ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت ، 1966 :21

[2] الكريم. مصطفى عوض، فن التوشيح، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1974 : 18

[3] عيسي. فوزي، الموشحات والزجل في الأندلس في عصر الموحدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية:11

[4] الزبيدي. محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس: تح: جماعة من المختصين .، دار الهداية: 7/ 210

[5] دار الطراز: 30

يكثرون من أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات"[1].

قال ابن دحية الأندلسي: "الموشحات، هي زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوت. وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق. وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق"[2].

قال ابن معصوم الحسني: " أول من نظم الموشحات أهل الأندلس وكان المخترع لها منهم بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه ابن عبد ربه صاحب العقد ثم جاء من تأخر عنهما، فأنافوا عليهما في الإحسان والإجادة حتى لم يبق لهما معهم ذكر وكدت موشحاتهما، ولأهل اليمن أيضاً نظم يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب، والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الإعراب وإن وقع اللحن في بعض الموشحات التي على طريقتهم لكون ناظمه جاهلاً بالعربية فلا عبرة به بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى فيه شيء من الإعراب بل اللحن فيه أعذب وحكمه في ذلك حكم الزجل"[3].

- **عوامل ظهور فن الموشحات في الأندلس:**

العوامل الاجتماعية: تطور الحياة الاقتصادية والثقافية وما بلغته الأندلس من الرفاهية والترف وسعة العيش مما أتاح لهم الإقبال على اللهو والتفنن في أساليبه وطرقه والبحث عن الجديد.

العوامل الفنية: ثمرة للتطور الذي حصل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالتوجه إلى الحياة الفنية وتشجيع الغناء والمغنيين وإغداق الأموال عليهم، ومن عوامله دخول زرياب المغني إلى الأندلس وتعليمهم أصول آداب المجالسة والمحادثة وأنواع الأطعمة والغناء حتى لقبوه بـ "معلم الناس المروءة" كما علمهم

---

[1] تاريخ ابن خلدون: 1 / 817

[2] المطرب من أشعار أهل المغرب: 204

[3] ابن معصوم . علي بن أحمد صدر الدين المدني الحسني، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، تح: محمود خلف البادي، دار سعد ودار كنان، مصر 2009: 1 / 145

الرقص وإرهاف الذوق فضلاً عن جهوده في مجال الغناء والموسيقى، فأصبحت هنالك حاجة إلى لون جديد من الشعر يواكب الغناء، فأصبحت الموشحات تلبي هذا الغرض من حيث: تنوع الوزن، والقافية، وثنائية اللغة.

تأثير الغناء والفلكلور الإسباني: فالموشحات ثمرة أندلسية، تأثرت من حيث بناء القصيدة وأوزانها بالمحاولات الشرقية القديمة التي خرجت على الأوزان المألوفة[1]، مع تأثرها بالآثار الإسبانية والفرنسية من الغناء والشعر[2].

"ولم يأخذ فن التوشيح في التألق إلا في عهد الطوائف، ثم عرف عصره الذهبي في عهد المرابطين، وكان للموشح مساره ومنحاه كما كان للشعر أيضاً مساره ومنحاه، وعلى ذلك اختار أصحاب كل فن الطريق الذي سلكوه والمذهب الذي ارتضوه، وهكذا كان هنالك وشاحون، كما كان إلى جانبهم شعراء، ويبدو أن الكثيرين من الشعراء كانوا ينظرون أول الأمر باستعلاء إلى الوشاحين. غير أن بعضهم أخذ يتهيب النظم على نسق الموشح بعد ذلك، لاسيما حين أصبح لهذا الفن أعلامه الذين برعوا فيه وتصرفوا في ضروبه. ولعل هذا ما يفسر كون فئة من كبار الشعراء قد أحجمت عن نظم الموشح.

وفي مقابل ذلك كان أكثر الوشاحين بالأندلس قد قصروا جهدهم وعنايتهم على هذا الفن دون أن يأبهوا كثيراً لنظم القصائد. ولعلهم كانوا يتيهون بفنهم الطريف ويرون فيه ظاهرة عصرية تتفق مع منازع الحياة الجديدة وتعكس ملامح البيئة المتميزة، على حين كانوا من جهة أخرى يرون في فن الشعر ونظم القصيد إرثاً معهوداً وظاهرة غير عصرية ... إن هذا الفن الطريف الذي استحدثه الأندلسيون بعد أول ثورة مجددة حققها الشعر العربي عبر مسيرته الطويلة الممتدة، ولعل أبرز جوانب هذه الثورة التحرر من رتابة القافية، والخروج على توازن الشطور، بل التمرد على العبارة الفصيحة في كثير من الأحيان"[3].

---

[1] مثل: المسمط والمزدوجات، والمخمسات، وغيرها

[2] ينظر توفيق. عمر إبراهيم ، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس"موضوعاته وفنونه ": ، دار غيداء ، عمان – الأردن 2011 : 294

[3] ملامح الشعر الأندلسي: 622

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن هذا الفن نتاج أندلسي، فإنهم قد اختلفوا في مخترع الموشح، فهناك روايتان مختلفتان تقدم كل منهما اسماً لمخترع هذا الفن يختلف عن الآخر.

الرواية الأولى: قال ابن بسام: "وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها – فيما بلغني– محمد بن محمود القبري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان. وقيل: إن ابن عبد ربه صاحب كتاب "العقد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة. فاستمر على ذلك شعراء عصرنا كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن، ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التضفير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز"[1].

الرواية الثانية: قال ابن خلدون: "كان المخترع للموشحات بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري[2] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني. وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز"[3].

وترتبط نشأة الموشح الأندلسي وتطوره بثلاثة أسماء: مقدم بن معافى القبري، ويوسف بن هارون الرمادي، وعبادة بن ماء السماء.

---

[1] الذخيرة: ق 1 ج 2 / 469.

[2] هذا الاسم (مقدم بن معافي القبري) أصابه تحريف في بعض المصادر، حيث ورد (معافر) بدلاً من (معافى) وورد (الفريري) بدلاً من (القبري).

[3] تاريخ ابن خلدون:1/ 817

أما الأول **مقدم بن معافي القبري**، فكانت النشأة الحقيقية على يديه، حيث (كان يجعل اللفظ العامي أو الأعجمي مركزاً (قفل). فالوشاح الأول إذن كان يصنع الخرجة بالعامية أو العجمية الأندلسية ويؤسس عليها سائر الموشحة باللغة الفصحى، وكانت الموشحات الأولى بسيطة، وكان أكثرها كما قال ابن بسام: "يبنى على الأعاريض المهملة[1] غير المستعملة"[2]، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل في الدوائر العروضية الخمس.

وكما كان الشاعر يفكر في وزنه وقافيته، أو يتحسس ذلك برياضة الذهن، ومقاربة المناسب، كان الوشاح أيضاً يبحث عن الخرجة المناسبة لموشحته؛ لتكون الأساس الذي يبنى عليه موشحته، وهذا يعني انطلاق الوشاح من منطقة أخرى غير التي كان الشاعر ينطلق منها، ولنقل – إذن – إنها خصوصية الموشح، واستقلاليته الفنية.

وأما الثاني **يوسف بن هارون الرمادي** ت 403 هـ، وهو شاعر ووشاح، فكان أول من أكثر في الموشحة من التضمين في المراكز، أي هو أول من أحدث في الموشحة تعدد الأجزاء أو الأشطار في الأقفال.

وأما الثالث **عبادة بن ماء السماء** ت 419 هـ، فقام بمهمة أخرى في تطوير صناعة الموشح، وذلك بالإكثار من التضمين في الأغصان، أو "دقة التجزئة في أشكال الأغصان"[3]، وبذلك تمت للموشحة صورتها التي حملتها العصور التالية)[4].

---

[1] مثلاً: بحر الطويل من دائرة المختلف ووزنه (فعولن مفاعيلن) أربع مرات على شطرين. ويستخرج من هذه بحر مهمل، تفعيلاته عكس تفعيلات الطويل، وتجيء على هذه الصورة:

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن

[2] الذخيرة : ق 1 ج 2 / 469

[3] تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الدول والإمارات – الأندلس": 150

[4] ينظر الداية. محمد رضوان ، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق 2000: 182–183

أصل الموشح

اختلف مؤرخو الأدب اختلافاً كبيراً حول أصل الموشح، وحشد كل ذي رأي منهم حججاً وبراهين أو ما يشبه الحجج والأدلة، والاختلاف بينهم واسع، وقد أدى الاختلاف الظهور ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول يرى "إن الموشح هو تطور لأنواع من النظم معروفة في الأدب العربي قبل ظهور الموشح. ودور الأندلسيين عند هذا الفريق ليس أكثر من التنظيم والترتيب، أو إعادة التنظيم بما يعطي هذا الشكل الجديد، وممن تبنى هذا الرأي مصطفى الشكعة[1].

ورأي هذا الفريق يغفل عن حقائق وثوابت في نسيج الموشحة، موضوعاتها مثل: الخرجة، وبناء الموشحة من: أقفال، ومطلع، وخرجة، وأغصان تتوالى على نظام معين، وتطور الموشحة – مع الزمن – من الالتصاق بالموسيقى والغناء والطبيعة وذكر المجالس إلى أعراض أخرى كالمديح، بل الوصول بأغراض الموشحة إلى الرثاء والهجاء.

الاتجاه الثاني يرى أن الموشحات بنيت على أغانٍ جيليقية "إسبانية" كانت النساء الجيليقيات في البيوت العربية يغنينها –وقد اختلطت الأجناس بالزواج– وإن هؤلاء الجيلقيات كن يغنين بلغتهن في الحفلات، ويهدهن الأطفال، ويُسرين عن أنفسهن في ساعات العمل، وهي النظرية التي عرفت باسم المستشرق ريبيرا.

ويدخل في هذا آراء أخرى أرجعت الموشح إلى غير العرب، ووجد من يقول: إن الموشح مأخوذ عن التروبادور، والجونكلير اللذين كانا شائعين في منطقة البروفانس. والصواب أن هؤلاء أخذوا عن أصحاب الموشحات العربية؛ لأن الموشح أسبق من ظهور أولئك الجوالين من الإسبان والفرنسيين بأكثر من قرنين من الزمان.

الاتجاه الثالث يرى أن الموشح نشأ في الأندلس استجابة لدواع غنائية، وبالاحتكاك مع الأغاني الشعبية الأندلسية، وقد ذهب إلى هذه النظرية عبد العزيز الأهواني ، فجمع بين الموشح والزجل في صعيد واحد"[2].

---

[1] انظر: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، ص 394–395.

[2] انظر: في الأدب الأندلسي: محمد رضوان الداية، ص 180–181 بتصرف.

وقد قدم عليها الأدلة والبراهين من أخبار الموشحات والأزجال، ومن معالجة خرجات عدد كبير من الموشحات والأزجال الأندلسية.

فنية الموشح

إن التجديد الحقيقي في فن التوشيح إنما يتجلى في **النهج** أكثر مما يتجلى في التعبير، فطرافته تقوم على هذا التحرر من قسرية الأوزان المألوفة والانعتاق من رتابة القافية المكررة، مع افتنان في تعدد أشطار الأقفال والأغصان والمراوحة بينها على أنماط معينة.

أما **العبارة** في الموشح فقد تخلت إلى حد كبير عن جزالتها، وجنحت بدلاً من إلى الرقة، ولهذا غلبت على **ألفاظ** الموشحات العذوبة والسهولة، واتسمت عبارتها والتدفق واليسر. وهذه السمة طبيعية في فن غنائي انبثق من بين الأناشيد والألحان والأغاني والموسيقى، يضاف إلى ذلك أن الموشحات باعتبارها فناً شعبياً – إلى حد ما– فقد غدت السهولة فيها مطلباً يحرص الوشاحون على تحقيقه، مادام القصد منها التغني والإنشاد.

ومن هنا لا يحفل الوشاحون – في العادة – بالغوص في **المعاني**، من مثل ما نألفه في كثير من الشعر، كما أن موشحاتهم لا تنطوي في الغالب على الأفكار العميقة أو الصور المبتكرة.

وتبعاً لظروف الموشحة التي تقوم – كما دل عليها اسمها – على الزينة، فقد حفلت عبارتها **بالزخارف**، وحرص فيها أصحابها على ترصيعها بمختلف المحسنات من: مجانسة، ومطابقة، وترصيع، فضلاً عن التقفية المتنوعة. وهذا جعل فن التوشيح معرضاً للبراعة الأسلوبية التي كثيراً ما بلغت حد التكلف والتلاعب اللفظي، وهكذا كان شأن الموشحات في ذلك كشأن الآنية المزوقة التي تسر الناظرين من: صوغها، وجميل صنعها، وبراعة زخارفها على حين أنها خاوية، وكأنما قصد بها المتعة الصافية والبهجة الخالصة، إنها أشبه بالفسيفساء الملون الذي يعتمد على براعة الوصف ومهارة التنميق ليبتدع أشكالاً طريفة معجبة[1].

[1] ملامح الشعر الأندلسي: 264–265

أجزاء الموشح

يتكون الموشح من أجزاء معينة اصطلح عليها الوشاحون، والتزموها في صنع الموشحات، وهذه الأجزاء هي:

(1) المطلع: أطلق هذا الاسم على المجموعة الأولى من الموشح، وغالباً ما يكون عدد الأجزاء فيها اثنين، ويسمى الموشح الذي افتتح بالمطلع موشحاً **تاماً**، وإذا استغنى عنه سمي **أقرعاً**، ومن أمثلة المطلع قول ابن زهر الحفيد في موشحة له: (الرمل)

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

وهذا مثال للشكل البسيط الذي انقسم فيه المطلع إلى جزأين (أ، ب)

وقد يتكون المقطع من عدة أجزاء كما في قول الأعمى التطيلي:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدري

(2) الدور: هو مجموع الأجزاء التي تلي المطلع، ويبلغ عددها ثلاثة إلى خمسة أجزاء، ولا يشترط وصولها إلى عدد معين، ويستهل الدور الموشح الأقرع الذي استغنى عن المطلع.

(3) السمط: يطلق "السمط" على كل جزء من أجزاء الدور، ويكون مفرداً، أو مكوناً من فقرة واحدة، كما يمكن أن يركب من فقرتين فأكثر، كما في قول الأعمى التطيلي في إحدى موشحاته:

الله ما أقرب على محبيه وأبعدا

حلو اللمي أشنب أسي الضنا فيه وأسعدا

أحبب به أحبب ويا تجنيه طال المدى

ويشترط الخبراء في الموشحات أن تتماثل جميع الأدوار في الترتيب وتتساوى في العدد.

(4) القفل أو المركز: هو مجموع الأجزاء التي تعقب الدور الأول، ولا يشترط عدد معين من الأقفال، وإن كان عددها في أغلب الموشحات خمسة عدا المطلع، أي القفل الأول ويجب أن تكون الأقفال متفقة في الوزن والقوافي وعدد الأجزاء[1]، ويسمي اللهم القفل مركزاً، وهو يشبه المطلع في الموشح التام، ويتردد في الغالب في الموشح قام ست مرات إذا عددنا المطلع، وخمس مرات في الأقرع[2]، وأما الأجزاء التي يتركب منها فأقلها اثنان، وقد يصل عددها إلى عشرة، قال ابن سناء الملك: "وأقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء، وقد يكون من النادر ما قفله تسعة أجزاء وعشرة"[3].

ومن أمثلة القفل المركب من جزأين: قول ابن زهر الحفيد:

شمس قارنت بدراً راح ونديم

ج 1 ج 2

ومن أمثلة القفل المركب من ثلاثة أجزاء: قول ابن زهر أيضاً:

حلت يد الأمصار أزرة النوار فيأخذني

ج 1 ج 2 ج 3

ومن أمثلة القفل المركب من أربعة أجزاء: قول الأعمى التطيلي:

أدز لنا أكواب يُنسى بها الوجد

ج 1 ج 2

واستصحب الجلاس كما قضى العهد

---

[1] دار الطراز : 33

[2] الموشحات والأزجال: 10

[3] دار الطراز :33

ج 3 ج 4

(5) البيت: يتكون البيت في الموشح من الدور والقفل الذي يليه، وهو اختلاف واضح بين القصيدة التي تتكون أبياتها من صدر وعجز، والموشحة، ويطلق ابن سناء الملك مصطلح "بيت" على ما يطلق عليه غيره "الدور"، يقول: "والأبيات هي الأجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح في وزنها، وعند أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة القوافي البيت الآخر، والقفل"[1]

(6) الغصن: هو جزء من أجزاء الأقفال – ومنها المطلع والخرجة–، وتتساوى الأغصان في جميع الأقفال في العدد، كما تتماثل في الترتيب، وأقل كل عدد الأغصان في كل قفل اثنان، وقد يصل إلى عشرة كما ذكر ابن سناء الملك.

ويوضح مصطفى عوض الكريم حقيقة تحدد بعض طبيعة الموشح، وهي أنه كلما زاد عدد الأغصان في الموشح أبعده ذلك عن أن يكون مجرد مسمط، حيث لا تتكرر إلا قافية واحدة، على أن المبالغة في تعديد هذه الأغصان نوع من التكلف[2].

(7) الخرجة: هي آخر قفل في الموشح وهي جزء أساسي في الموشح، قال ابن سناء الملك مشيداً بمكانتها في الموشحة: "والخرجة هي إبراز الموشح، وملحه، وسكره ومسكه، وعنبره، وهي العاقبة، وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة"[3]. والخرجة إما أن تكون: عربية فصيحة، أو عامية، أو أعجمية، "وكان الوشاحون – في الغالب – يجعلون الخرجة على ألسنة الصبيان والنسوان والسكارى أو على ألسنة الحيوانات كالحمام أو المجردات كالغراب والحرب، ويمهدون لها بكلمة: قال، أو غنى، أو ما يقارب ذلك، كقول عبادة:

---

[1] دار الطراز: 33

[2] الموشحات والأزجال:11

[3] دار الطراز : 43

إن الحمام في أيكها تشدو

قل هل علم أو هل عُهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان"[1]

ومن الأمثلة على الموشحات: موشحة "جادك الغيث" للسان الدين بن الخطيب، وفيها يقول:

المطلع		**المطلع**
حانكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمى	**غصن**	يا زمان الوصل بالأندلس
لمْ يَكُنْ وصَلكَ إِلَّا حَلْما	**غصن**	في الكرى أو جلسة المختلس
الدور		**الدور**
إِذْ يَقودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ المُنى	**سمط**	تنقل الخطو على ما يُرْسَمُ
زفراً بَيْنَ فرادى وثنى	**سمط**	مثلما يدعو الوفود الموسم
والحَيَا قَدْ جَلَّلَ الروض سنا	**سمط**	فتغورُ الزَّهْرِ فِيهِ تبسم
القفل		**القفل**
وروى النعمان عن ماء السما	**غصن**	كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحُسْنُ ثوباً مُعْلَما	**غصن**	يزدهي منه بأبهى ملبس
الدور		**الدور**
مال نجم الكأس فيها وهوى	**سمط**	مُسْتَقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيهِ مِنْ عَيْبٍ سَوَى	**سمط**	أنه مر كلمح البصر

[1] الأدب الأندلسي: جودت الركابي، ص 299.

الخرجة		الخرجة
حينَ لَذَّ الْأَنَسُ مَعَ حُلْوِ اللَّمَى	**غصن**	هجمَ الصُّبْحُ هُجوم الحرس
غارت الشَّهْبُ بنا أو ربما	**غصن**	أثرت فيها عُيون النرجس[1]

وزن الموشح

جرى نظم الموشح على طريقتين:

الأولى: ما خالف تلك القواعد والأصول، ولعل من أوائل الذين درسوا طرائقه وأصوله ابن سناء الملك، وكان له قدم السبق في ذلك، لكن سعة عروض الموشح "جعله لم يضبط عروضه، كما ضبط الخليل بعروضه أوزان الشعر العربي واختلط الأمر في تحديد الأنماط البينية"[2].

الثانية: ما لا دخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب، كما يشير ابن سناء الملك، إذ يقول: "وهذا القسم منها هو الكثير الجم والغفير العدد الذي لا ينحصر والشارد الذي لا ينضبط، وكنت أريد أن أقيم لها عروضاً يكون ذخراً لحسابها وميزاناً لأوتادها وأسبابها منفر ذلك وأعوز"[3].

وقد جرت محاولات سابقة لابن سناء الملك، ولكنها كانت سريعة غير متأنية، ومن هذه المحاولات محاولة ابن بسام في الذخيرة وهو يبحث عن مبتكر الموشحات، فيقول: "وكان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويُسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها، ولا أغصان"[4].

---

[1] ديوان لسان الدين بن الخطيب: 792 نفح الطيب: المقري: 7 / 11

[2] ديوان الموشحات الأندلسية: 12

[3] دار الطراز : 33

[4] الذخيرة : ق 1 ج 2 / 469

والحق أن التقعيد لعروض الموشحات ووضعها في قالب له أصوله وقواعده كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي، أمر عسير الارتباط ذلك بالوقوف على النتاج التوشيحي كله، وهذا من الأمور التي يصعب تتبعها نظراً لضياع الكثير مما كتب في تلك الحقبة الزمنية المضطربة، كما أن حصر الموشحات على تلك الأوزان المتنوعة المتشابكة تبقى غير ذات جدوى إن لم تكن للأوزان بحورا شعرية لها عروضها النهائية الثابتة، وهذا أمر عسير المنال، والبحث فيه يعد ضربا من العبث واللاجدوى.

ومن هنا وجدت الصعوبات والعراقيل في وضع ميزان خاص وثابت الإيقاعات هذه الموشحات، وعدم القدرة على عروض شامل لها يمكن أن يكون منهجا لدراسة إيقاعاتها وعروضها، والسبب في ذلك هو أن الوشاح حينما ينظم لا ينظر إلى إيقاعات وقواعد متفق عليها سابقاً[1]، ولكن لكل شاعر الحرية في اختيار العروض التي تروق له، ولهذا يبرز الجانب المبتكر فيها في عدم إمكانية تطويعها على العروض التي برع فيها المشارقة؛ لأنها نشأت لحاجات فنية واجتماعية، وكان المجتمع الأندلسي في أشد الحاجة إليها، وفيها برزت الخصوصية الأندلسية التي ابتعدت بهذا الفن عن طريق التقليد والمحاكاة للأدب المشرقي.

---

[1] عروض الموشحات الأندلسية : مقداد رحيم: 50

المحاضرة الثانية عشرة

النثر الأندلسي (1)

طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي

كانت لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طبقتين من الناس: كتّاب الرسائل وكتّاب الزمام. أما كاتب الرسائل " فله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه "[1]. وأما كاتب الزمام فهو المسئول عن شئون الخراج، وهناك أيضاً من يسمى الكاتب الخاص، ولدى كل أمير مثل هذا الكاتب .

وجودة الخط أمر مشترك بين كتاب الإنشاء وكتاب الزمام، وكان المنصور بن أبي عامر يتشدد في النص على جودة الخط حتى لقد أصدر عهدا يوبخ فيه العمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا أن يحكموا الخط ويميزوا أنواع الرق والمداد[2].

وكان النوع الأول من الكتابة هو ميدان فرسان البلاغة حينئذ، ولكنا لا نملك شواهد ذلك كله، فقد ضاعت الكتب التي ألفت في كتّاب تلك الفترة مثل: طبقات الكتاب بالأندلس للافشتين ، كتاب آخر لسكن بن سعيد ، وكتاب ثالث لعبيديس الجياني بعنوان " اللفظ المختلس من بلاغة الكتاب بالأندلس" وكلها ألفت في دور مبكر[3].

---

[1] نفح الطيب" 102/1

[2] إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ط2 دار الثقافة، بيروت 1969 : 325

[3] نفسه:326

وقد ظل أمر الكتابة بسيطا لا تحلية فيه حتى أواخر أيام المستنصر، وكان السجع يجيء في الرسائل عفوا دون تعمد، حتى مقدمات الكتب كمقدمة قضاة قرطبة للخشني ظلت عارية من السجع إلا فيما ندر.

أما المرحلة الثانية فتشغل عهد الدولة العامرية وفترة الفتنة وفيها ظهر أكابر الكتاب الناثرين ومنهم: ابن دراج القسطلي – ابن شهيد – ابن حزم – ابن حيان المؤرخ – ابن زيدون وغيرهم[1].

وتمتاز هذه المرحلة عن سابقتها بمميزات كثيرة منها تغير المؤثرات التي أخذ يتلقاها هؤلاء الكتاب، إذ تغيرت النماذج المشرقية التي يحتذونها وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أولا ، ثم طريقة بديع الزمان ثانيا، هما النموذج الأعلى للمنشئين بالأندلس. تبلغ هذه المرحلة ذروتها عند ابن شهيد ضد المعلمين وعجزهم عن تعليم البيان، بل هو يعيب الأندلسيين عامة لتقصيرهم في شؤون البلاغة وكلامه صادر عن العجب، ومع ذلك لم يلتزم أسلوبا واحدا ، فهو حينا يحاكي عبد الحميد الكاتب وحينا آخر يذكرنا بالجاحظ، غير أنه شديد الإعجاب بطريقة البديع.

وكان ابن زيدون مكثرا من الاقتباسات والتلميحات والإشارات، يبني الرسالة – كالرسالة الهزلية – من محفوظه. وكان ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة التعاطفات وترتيبها على نحو خاص والإغراب في الاشتقاقات. وظل ابن حزم الفقيه يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالا دون التفات إلى حلاوة الجرس.

وأكثر هؤلاء الكتاب يوشحون رسائلهم بالشعر ويحلون فيها الأبيات، ويقتبسون الأمثال[2].

أهم الآثار النثرية في هذا العصر

أكثر الكتب التي تتصل بهذا العصر إنما هي في التراجم. أما الكتب الأدبية فأهمها ثلاثة: العقد الفريد لابن عبد ربه وطوق الحمامة لابن حزم ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، فأما الأول فالصورة الأندلسية

---

[1] نفسه:329

[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 117/1، 136 ، 235

فيه باهتة، فهو يقوم على الجمع ومعظمها في أشعار مشرقية، وحين وصل إلى الصاحب بن عباد قال قولته الشهيرة : " هذه بضاعتنا رُدت إلينا "، ويتبقى الكتابان الآخران وهما يستحقان منا وقفة في هذا المقام:

- كتاب طوق الحمامة لابن حزم

- **<u>ابن حزم :</u>**

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد 384 – 456هـ

يصر الإسبان على أن يكون ابن حزم إسبانيا ، فهم يريدون ضمه إلى تاريخهم وحضارتهم الفقيرة ، لقد ألف ابن حزم كتبا جاوزت (400) كتاب ، كتبها في مختلف فروع المعرفة .

ولد والد علي بقرية من عمل لبلة تسمى منت لشم تقابل ما يسمى اليوم كاسا مونتيخا، ثم هاجر منها إلى قرطبة، ليتثقف، فنال من الثقافة ما أدهش معاصريه، وكان زميلا لابن أبي عامر وبينهما بعض المنافسة، إلا أن هذه المنافسة لم تمنع الحاجب من الاستفادة من مواهب أحمد بن سعيد، فاتخذه وزيرا له.

وقد تأثر علي بشخصية والده، وظلت له في نفسه صورة جميلة لم تطمسها الأيام، لأنه فقده وهو في أول شبابه، يوم كان محتاجا إلى رأيه وتوجيهه[1].

ولكن قبل هذا كله قضى علي فترة طفولته وصباه حتى بلغ حد الشباب بين الجواري، فهن اللواتي علمنه القرآن وروينه كثيرا من الأشعار ودربنه في الخط ، فلم يجالس الرجال إلا وهو في حد الشباب . وقد جعلته هذه النشأة رقيقا في شبابه، حييّا من مجالس الرجال[2].

وحين قامت الفتنة تغير حظه ، وفقد أملاكه وهدمت دوره وقصوره لأنه كان من المناصرين للبيت الأموي ، وشرد عن قرطبة ثمانية أعوام ، ينتقل من بلدة إلى أخرى ،لقد تأثر بالفتنة وبالتغير الذي أحدثته، لأنها فاجأته وهو شاب في ظل النعيم وحياة القصور، وأخرجته من نعمته وثرائه ووطنه، وغيرت مجرى

---

[1] المعجب: 93 ، الذخيرة: 167/1

[2] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: 495

حياته، فإذا هو يولد من جديد، ليفني ملكاته المدهشة في خدمة مجتمعه، بعد أن كان هشا في عهد الشباب يعيش لنفسه، إن حياة ابن حزم صورة للإرادة التي لا تعرف التردد والضعف، وصورة لليقظة النفسية التي أثارتها الفتنة.

ثم عاد إلى قرطبة وهناك تحسس معاهده وديارِه وبكاها بحرقة ، وتفقد أصدقاءه فوجدهم قد تفرقوا ومات بعضهم. وانصرف في قرطبة إلى تلقي العلم، لأنه أحس بنفسه ضائعا لم ينل دنيا، وتكاد الآخرة تفلت من يده ، لأنه رأى أن كل ما يتصل بالدنيا باطل وليس له فائدة ، وعرف أن العلم هو ميدانه الحقيقي، فخاض في كل العلوم ، ساعده على ذلك ذاكرة قوية وإخلاص نادر وطموح لا يتوقف ، وانصرف إلى التأليف ، وإلى نشر مذهبه الظاهري الذي يقول : " يجب أن نلتزم بظاهر القرآن والسنة ، لكي لا يكون في القياس انحراف وفي الإجماع خطأ "، وهذا هو الدور الثاني من حياته[1].

كان ابن حزم إذا اقتنع في موضوع ما ، يجادل جدالا قويا ولا يعرف كللا أو مللا ، حتى ألب عليه العلماءُ الأمراءَ ، وراحوا يشكونه إليهم ، ومنهم أمير إشبيلية الذي أراد التقرب إلى العامة ، فحرق كتبه جميعها ، لكنه لم ييأس .

عرف عنه فصاحة الرأي وحدة الطبع ، فقد اتهم بقسوته على خصومه حتى قال عنه ابن العريف: " كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين " [2].

من أبرز مناظراته تلك التي أجراها مع أبي الوليد الباجي ، رأس المالكية والأشعرية في الأندلس.

كتب في كل شيء حتى في الإنسان (مداواة النفوس) وهو كتاب صغير غير أنه يفصل فيه عيوب النفس ويشرح سبل إصلاحها ، والغريب أنه يبدأ بنفسه دون غيره ممن سبقه من الواعظين ، ومن أبرز صفاته الصدق والصراحة التي أوجدت من يحاربه.

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس:341

[2] الزركلي. خير الدين، الأعلام، ط15 دار العلم للملايين، بيروت 2002 : 254/4

أصيب بشيء من الربو ، فانعزل آخر أيامه ،وعلى الرغم من ظاهريته إلا أنه كان ينزع نزعا روحيا يسمو به عن سفاسف الأمور وصغائرها ، وعلى الجملة فإن رسم صورة كاملة لشخصية ابن حزم يضيق على صفحات كتاب ، فقد كان نسيجا وحده فيمن أنجبته الأندلس[1] .

- **رسالة طوق الحمامة**

اجتمعت لهذا الكتاب فنون من العناصر ميزته بين غيره من الكتب الأندلسية، منها أنه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الأندلس كان شديد العارضة في المدافعة عن الدين، وقد صرف حياته في المجادلات الفقهية العنيفة، فتخصيصه شيئا من وقته للحديث في هذا الموضوع مما يستوقف النظر. وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سينكرون عليه تأليفه ويقولون إنه خالف طريقته وتجافى عن وجهته، فقال: وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته، قال الله عز وجل " يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ". وصرح أنه لا يحب المراءاة ولا أن ينسك نسكا أعجميا، وقد استغل هذا الكتاب ليعرض فيه أشعاره الغزلية في مواقف متنوعة، كما فعل صديقه ابن شهيد في التوابع والزوابع ولكن ذلك لم يكن هو غايته الأولى من الكتاب، بل كانت غايته الكبرى هي رسم صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو " الحب "، مخفيا أسماء بعض الأشخاص حينا مصرحا بها في أحيان كثيرة، وهذه الناحية من الكتاب هي أقوى ما فيه، لأنها تضمنت اعترافاته الذاتية، وتجاربه وتجارب من حوله في شئون عاطفية، فكان ذلك من أجمل ما سجلته كتب التراجم العربية في هذا الباب.

- الكتاب من بعض نواحيه " ترجمة ذاتية " تصور شجاعة صاحبها في الحديث عن نفسه وعن مجتمعه، كما تدل على نوع دقيق من الاستيطان النفسي، ومن دراسة عارضة لنفسيات الآخرين. ثم إن هذا الكتاب يحتوي نظرة في الحب تشبه أن تكون مفلسفة أفلاطونية، وهي نوع من الحب العذري لم يكن كثير الشيوع في الشعر الأندلسي من قبل، فشرح الحب على هذه الطريقة حدث مهم في الأدب الأندلسي جعل بعض الباحثين من المستشرقين يعقد الصلة بين هذه النظرة الأندلسية، وما طرأ من تغير على شعر الحب في

[1] المغرب: 354/1

أوربة في القرن الثاني عشر، فعندما تصدى ابن حزم لهذا الموضوع وفصل فيه وحلل ، وأرخ له في الأندلس ، ظهر كتّاب في فرنسا قلدوه ، وظهر بعد ذلك شعر الترابادور في شمال إسبانيا تقليدا لما ذكره ابن حزم في فلسفة الحب.(التروبادور هو الشاعر الجوّال الذي ينظم أجمل الأشعار الغنائية، والذي تميز بعذريته وعفته التي تجعلنا نتذكر مناجاة قيس بن الملوح لليلى أو جميل بن معمر لبثينة، هذا الشعر الذي انتشر بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي في جنوب فرنسا (مقاطعة البروفانس) وشمال إسبانيا ثم في إيطاليا وفيما بعد في المانيا وإنجلترا، ويجمع الكثير من الباحثين على التأثير العربي في شعر التروبادور، حيث يعود أصل الكلمة (التروبادور) إلى كلمة (دور الطرب)، أي دور الغناء كما يطلق عليه في الأندلس، مع تقديم الصفة على الموصوف كما يحدث عادة في اللغات اللاتينية). وإلى كتاب طوق الحمامة يشير المشيرون حين يتحدثون عن هذا الأثر[1].

ولا نستطيع أن نعين بالضبط متى كتب ابن حزم كتاب الطوق، ولكنه ألفه فيما يبدو بعد خروجه من قرطبة بوقت غير طويل، إذ لا تزال حسرته على دياره ومعاهده التي خربها البربر حية قوية، كما أنه يتحدث فيه عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة، مما يدل على أنه ربما بدأ بكتابته بعيد استقراره النهائي واعتزاله الحياة السياسية، وهذا لم يتم قبل سنة 419، ويفصح أنه حين كتبه كان يسكن شاطبة ،وأن كتابا لأحد أصدقائه وصلة من المرية، ثم جاءه صديقه زائرا وكلفه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه، فتكلف التأليف إرضاء لصديقه، وأخذ على نفسه ألا يقص قصص الأعراب والمتقدمين " فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ولا أتحلى بحلي مستعار".

- **دلالة العنوان (طوق الحمامة في الألفة والألاف) :**

بدأ عنوان الكتاب بكلمة الطوق ، والذي يحمل معنى الدوام والجمال والزينة ، فالطوق هو حلي يجعل في العنق ، ولما كان طوق الحمامة يزين ويجمل كذلك الحب يحلي ويجمل أرواح المحبين ونفوسهم ، فالطوق والحب مبعثان للجمال ، وهما ملازمان لصاحبيهما لا يمكنهما إزالته ونزعه .

[1] تاريخ الأدب العربي، عباس: 342

العنوان يحمل طاقة إيحائية تفتح الباب للتأويل والتحليل ، فالحمامة رمز السلام والتعاطف والتآلف ، وطالما كانت رسولا للمحبين، وطائر حر يرفض كل قيد ويتوق دوما إلى الحرية ، أما الطوق فهو سمة جمالية وحصار من الألفة والاحتواء .

جاء العنوان مكونا من عتبة رئيسية (طوق الحمامة) وعنوان شارح ومفصل أكثر (في الألفة والألاف) يوضح من خلاله عالم النص ويقلص المسافة بين النص والقارئ.

- **أبواب الرسالة :**

قسم ابن حزم رسالته هذه على ثلاثين بابا :

عشرة منها في أصول الحب، وفي علاماته ، ثم باب من أحب في النوم والحب بالوصف والحب من نظرة واحدة والتعريض بالقول والإشارة بالعين والمراسلة بالكتاب والسفير، وفي هذا الترتيب نلمح التدرج من أخف أصول الحب – كالحب في النوم – إلى أقواها صلة في الواقع، ثم كيف يتدرج من التعريض إلى الإشارة إلى المراسلة إلى السفارة.

وإثنا عشر بابا في أعراض الحب وصفاته محمودها ومذمومها، وهو يقرن كل صفة بما يناقضها فإذا تحدث عن كتمان السر شفعه بالحديث عن الكشف والإذاعة، وإذا تحدث عن الطاعة ألحقها بالكلام في المخالفة ،وشفع الوفاء بالحديث عن الغدر وهكذا.

ثم ستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب وهي: العاذل والرقيب والواشي، هؤلاء كلهم ذوات – ثم الهجر والبين والسلو – ومرة أخرى نجد هذا التدرج المتصاعد في تصوير هذه الآفات ، ومن هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، وهما: باب العاذل، وضده باب الصديق المساعد؛ وباب الهجر، وضده باب الوصل.

ثم ختمه في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية وعن فضل التعفف لكي يقرن الحب بروح التدين وطاعة الله عز وجل ، ويكون كلامه فيه داخلا في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

[نلاحظ هذا الصديق لابن حزم طلب منه الكتابة في الحب ،وهذا الصديق يعرف حق المعرفة صدق ابن حزم وإخلاصه وقوله الحق ولو على نفسه ، فابن حزم سيكتب ما يعرف لا متزيدا ولا مفننا . فهو يركز على ذكر الحقائق بصدق دون تزويد ولا تحوير، لكنه سيغفل ذكر الأسماء لوجود ما يشين ، وسيقتصر على ما رآه في الأندلس، وهذه طبيعة ابن حزم القائمة على الصدق والأمانة العلمية].

فالرسالة من حيث التبويب محكمة البناء، ولكن ابن حزم يوسع فيها من مدلول الحب، وفي معرض الاستشهاد يقص قصصا عن الصداقة مثلا، وقد يحكي في بعض الأحايين من الأدب المكشوف، وهي قليلة في الكتاب، ثم هو يبالغ في استطراف شعره، وربطه بالأحداث التي يقصها، وفي كثير من الأحيان لا يكون شعره إلا كلاما منظوما فيصنع مقارنة غير ملائمة مع الحكايات المروية. ويتبسط أحياناً في الشرح والتفصيل حتى يخرج إلى تقرير أمور بديهية مستغنى عنها. ومع ذلك كله فإن العيوب لا تغض كثيرا من قيمة الكتاب، وقد كتبه مؤلفه في أسلوب حي دون أن يلجأ إلى التزويق اللفظي أو التصنيع، ولو قارناه بالتوابع والزوابع لفضلناه لسهولة طبيعته، وجريان أسلوبه المسترسل، ولم نجد فيه جلبة لفظية، هذا إلى ما فيه من خصائص الكاتب المتأمل في الحياة والناس .

- [1] ابن حزم . علي بن أحمد ، طوق الحمامة في الإلفة والألاف، مكتبة التبيان ، دار الجوزي ، القاهرة 2018م: 17-18

المحاضرة الثالثة عشرة

نماذج مختارة من كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي

(شرح وتحليل)

قال ابن حزم في رسالته طوق الحمامة[1] :

[الكلام في ماهية الحب]

" الحب – أعزك الله – أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل...

وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَرٌ[2] مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها.

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، والشكل دأب يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل، وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار – كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها، والله عز وجل يقول: هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها (الأعراف: 189) فجعل علة السكون أنها منه.

ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء

---

[1] نفسه: 19

[2] الأكر : جمع كرة

من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس. وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها، فمن ودك لأمر ولّى مع انقضائه"...

"30 – باب فضل التعفف[1]

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألا يعصي مولاه المتفضل عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه، وأرسل إليه رسله، وجعل كلامه ثابتاً لديه، عناية منه بنا وإحساناً إلينا.

وإن من هام قلبه، وشغل باله، واشتد شوقه، وعظم وجده، ثم ظفر فرام هواه ان يغلب عقله، وشهوته ان تقهر دينه، ثم أقام العدل لنفسه حصناً، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء، وذكرها بعقاب الله تعالى وفكر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاج إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب، " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" ((الشعراء: 88، 89)) "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات" ((الحجر: 48)) ..."وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" ((النازعات: 35 – 41) ...

فكيف بمن طوى قلبه على أحرّ من جمر الغضا، وطوى كشحه على أحدّ من السيف، وتجرع غصصاً أمرّ من الحنظل، وشرف نفسه كرها عما طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل – لحريّ أن يسرّ غداً يوم البعث، ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر".

****

[1] طوق الحمامة: 152

الشرح والتحليل:

- في المقدمة أوضح ابن حزم أنه كتب هذه الرسالة بناء على طلب صديق عزيز عليه، طلب منه أن يكتب في الحب ويوضح ، وهذا الصديق يعرف حق المعرفة صدق ابن حزم وإخلاصه وقوله الحق ولو على نفسه ، فابن حزم سيكتب ما يعرف لا متزيدا ولا متفننا .

- يعبر ابن حزم في المقدمة معزة هذا الصديق عنده ، ولولا ذلك لما كتب في هذا الموضوع (الحب) الذي هو سببه ضعف في النفس ويجب ألا نصرف الأنفس إلا بما يرضي الله ، وكان الفقهاء المسلمون لا يخوضون في هكذا موضوع لأنه من العسير الفصل فيه.

- أصبح الكتاب درة المواضيع الفلسفية في هذا المجال .

- في الغرب لم يكن يعتقدون بروحانية المرأة (الجانب الروحي) حتى تحب ، فهي سبب الخطيئة ، وسبب نزول آدم ، ولم يكن الغزل موضوعا من موضوعات الشعر الغربي لهذا السبب .

- عندما تصدى ابن حزم لهذا الموضوع وفصل فيه وحلل ، وأرخ له في الأندلس ، ظهر كتّاب في فرنسا قلدوه ، وظهر بعد ذلك شعر الترابادور في شمال إسبانيا تقليدا لما ذكره ابن حزم في فلسفة الحب.(التروبادور هو الشاعر الجوّال الذي ينظم أجمل الأشعار الغنائية، والذي تميز بعذريته وعفته التي تجعلنا نتذكر مناجاة قيس بن الملوح لليلى أو جميل بن معمر لبثينة، هذا الشعر الذي انتشر بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي في جنوب فرنسا (مقاطعة البروفانس) وشمال إسبانيا ثم في إيطاليا وفيما بعد في المانيا وإنجلترا، ويجمع الكثير من الباحثين على التأثير العربي في شعر التروبادور، حيث يعود أصل الكلمة (التروبادور) إلى كلمة (دور الطرب)، أي دور الغناء كما يطلق عليه في الأندلس، مع تقديم الصفة على الموصوف كما يحدث عادة في اللغات اللاتينية).

- ابن حزم أيا كان نسبه العرقي إسباني فارسي ، ما يهم أنه يحمل ثقافة عربية إسلامية ، المهم ثقافة المرء وما يؤمن به ، وليس عرقه أو جنسه ما يجعل منه مبدعا.

- نلاحظ كيف بدأ رسالته ، لم يبن كلامه على الاستعارات والكنايات والجناس والطباق والسجع ، وإنما بأسلوب واضح مباشر متقن وجميل ، فالأسلوب الجميل مرتبط بالفكر الجميل ، وتوضيح الفكر يأتي عن طريق الأسلوب الجميل .

في الخبر : أن أحد الخطباء يرفع صوته دون أن يكون له أي تأثير على المستمعين ، فقال أحدهم : إن كلامك لا يدخل في قلبي ، فإما أنا كاذب أو أنت كاذب .

وهناك من يقول لك : الفكرة واضحة في ذهني لكني لا أستطيع التعبير عنها ، هذا كلام مرفوض وغير صحيح ، فإذا كانت الفكرة واضحة فلابد من تعبير واضح ودقيق بأوجز أسلوب .

- ابن حزم بكلمات معدودات في النص استطاع أن يحدد ويعرف ويعرض لفلسفته.

- ينبه ابن حزم على مسألة غاية في الأهمية ، وهي أن موضوع الحب أمر ذو شأن ، وقد يخطر ببال المرء أنه نوع من التسلية ، لكن ابن حزم يراه انتقالا من الهزل إلى الجد ، وكلامه يعد تعريفا أوليا جامعا مانعا ، وهو واضح لا داعي لشرحه. ففي البدايات يحلو الحب للناس ويستسهلون الخوض فيه ، ثم يصبح جدا ، ثم يتبع ذلك المعاناة والألم ، وكأنه يريد أن يقول : احذروا والهزل قد ينتهي جدا ، وله ما له من نتائج وخيمة .

- نراه يحدد موقف هذا الموضوع من الشريعة يقول : " ليس بمنكر في الديانة ، ولا محظور في الشريعة"

ما الفرق بين الديانة والشريعة ؟

الديانة : العقيدة ، الشريعة: الأحكام

فالحظر هنا ليس على الميل نفسه ، وإنما على السلوك فقط .

- إذ هنا تعليلية ، لأن القلوب لا يملكها المرء ، فالشعور بالحب أمر قهريّ لا يد للإنسان فيه ، فهو ليس محظور في الديانة لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، لذلك لا نحاسب على خواطرنا وهواجسنا ،

وإنما نحاسب على أعمالنا وأفعالنا وحواسنا ، فهي بملء إرادتنا. فالتحريم ليس على أصل الشعور وإنما على نوع السلوك .

- " وقد اختلف الناس في ماهية الحب .."

هي عبارة واضحة من حيث سهولة الألفاظ ، لكن من حيث الدراسة تحتاج إلى بحث مطول :

فيبدأ بـ " والذي أذهب إليه " هذا اعتقاد له ، فهو عالم فقيه يحترم آراء الآخرين، ولم يقل والحق أنه ،،، ومن ثم أتى بتعريف الحب " إنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ".

ابن حزم يكتب لأناس مطلعين على الثقافة ، ففي رأيه ثمة نفوس قسمت ثم مزجت أو ألف بينها ، بمعنى أن النفوس خلقت فكانت نفسا واحدة ثم قسمت إلى جزأين ، ولا بد للجزء أن يحنّ لجزئه .

العنصر الرفيع يقصد به العنصر السماوي ، الإلهي .

إذن النفس كانت واحدة في أصل الخلق عندما كانت في عليائها ، وهنا ينكر ابن حزم ما ذهب إليه محمد بن داود (وهو مؤسس المذهب الظاهري الذي اعتنقه ابن حزم) فقد أشار ابن داود في بعض كتبه إلى بعض أهل الفلسفة ويقصد أفلاطون في كتابه المأدبة ، حيث يجتمع كبار فلاسفة أثينا على مأدبة طعام ليتحدثوا عن مواضيع شتى ، وكان من بينها موضوع الحب هذا .

ورأى الشاعر أريستوفانيس الذي عرض رأيه ، بأن الناس قسموا في أول نشأتهم، فالإنسان الأول كان مدورا كالكرة ، وله أعضاء مزدوجة ، أربع أعين ، أربع أيد ، أربع أرجل ، ....

وكان هذا الجسم يتدحرج ، فأزعج الآلهة في حركته ، فعرضوه عل كبير الآلهة، فرأى في قسمته إلى نصفين لكي يلتقي كل قسم بالآخر ، وقسم قسمة تامة ، وجعل كل قسم يحن إلى الآخر ، لكي يعودا من جديد كائنا واحدا .

ومن هنا لم يكن الحب الشاذ عند اليونانيين منكرا ، وجعله أفلاطون حبا عقليا يكون بين صديقين أو صديقتين يصل إلى حد التفاني.

هذه نظرية كتاب المأدبة باختصار شديد.

الآن ما الفرق بين مذهب ابن حزم ومذهب أفلاطون؟ ولماذا عارضه ابن حزم؟

- ابن حزم يرى أن الاتصال يكون بين أجزاء النفوس ، فالقسمة في النفس لا في الجسم .
- الغربيون يرون الحب حسيا وهو اتصال جسمي ، لأنهم مجتمع مادي بحت ، الغربيون يخلطون بين الحب الروحي والحب الحسي .
- بينما الحب في الأصل هو الميل من روح إلى روح ، فهناك حب بين روحين كانا في العالم العلوي روحا واحدة ثم قسمت ، بينما النظرية اليونانية ترى أنه يجب أن يتصل الجسمان ليتولد الحب .
- السبب أن حضارتنا قامت على الروحانية والحضارة الغربية قامت على المادية ،
- أفرط اليونانيون في مدح نظرية قسمة الجسم وصدقوها ، وجعلوا الجسم يحتاج إلى الجسم (نظرة مادية)

أما نظرية ابن حزم فتقوم على مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها ، بمعنى ينشأ الحب عندما تدرك روح قربها من روح أخرى كانت تعرفها قبل أن يفترق الجسمان ، وعندما تشعر الروح بمناسبتها روحا أخرى وتوافقها في هذه الحالة ينشأ الميل ، فنحن نميل عندما نشعر بالقرب التلقائي ، فالمناسبة والتوافق هما سر نشأة الحب .

- إذا الأمر ليس وصل بين جسمين ، وإنما أصل النفس في الجسم المرتبطة بالعالم العلوي هي التي تنشأ عنها الحب ، كيف يشرح ذلك ابن حزم ؟

" وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في الخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأبا يستدعي شكله ، والمثل إلى مثله ساكن ...."

كلما اتصل شيئان تقاربا ، وكلما انفصلا تباينا (يتصلان عندما يأتلفان وينفصلان عندما يختلفان) قول الرسول ص : الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

فالأمر قائم على المناسبة وغير المناسبة ، فالشكل دأبا يستدعي شكله ويطلب أن يماثله الآخر ، والإنسان بطبيعة الحال يسعى إلى الحصول على صديق يقاربه في الآراء ويوافقه ، فقانون الاتصال والانفصال هو قانون المشابهة وعدمها.

- "وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد "

كلما تجانس شيئان متقاربان رأيت ذوبان أحدهما بالآخر، فكل متجانسين يتقاربان وكل متضادين يتنافران.، وكل ينجذب إلى ما يناسبه وينفر مما لا يناسبه ، لأن المقاربة كانت قبل قسمة النفس ، فالنفس انقسمت بعد أن كانت واحدة .

- إذا القانون هو " والتنافر في الأضداد ، والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا "

ما معناه : أحيانا شيء يشبه شيء بأمور حسية مادية بينهما ، وأحيانا بأمور معنوية روحية ، وأحيانا نتنازع هل يشبهه أو لا يشبهه ، الحق يصعب معرفة التشابه بين المادتين ، وهذا ليس في النفس لأن النفس ذات جوهر روحي بعيد عن المادية .

والنفس : حار العلماء في تحديد معنى دقيق لها ، لكن ابن حزم يريد بها الروح ، فهي في عالمها العلوي ذات صبغة جوهرية بينما الجسم ذو صبغة عرضية، والفرق بين الجوهر والعرض ، فالعرض ما لا دوام له ، بينما الجوهر باق ، والروح جوهر ، والجسم عرض .

" وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ..."

الصعاد : الذي يحاول الصعود إلى الأعلى ، فالنفس تريد الصعود إلى الأعلى لولا أن الجسم يكبتها ، فعالمها عالم صاف لا تراب فيه .

سنخها : أصلها ، فأصل الروح مهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار.

لقد ركبت النفس في أصلها على المتناقضات ، فالله عز وجل وحده انفرد بالوحدانية ، وكل ما عداه هو ثنائيات الحياة ، سواء كانت ثنائية في التماثل أو في التضاد ، ولهذا يتعذب الإنسان بتمزقه بين قطبي الثنائيات .(المعادلة الصعبة)

- " كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان ..."

كل الوجود لمبدأ واحد ، حيث يحن كل نصف إلى نصفه الآخر ، ولا يسكن إلا إليه وذكر ابن حزم الآية القرآنية مستشهدا بها على قوله "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها " فجعل علة السكون أنها منه .

- " ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص في الصورة ، .....الخ"

يرى ابن حزم أنه لا علاقة لحسن الصورة والمظهر بالحب ، فكثيرا ما يحصل انجذاب بين جميل وقبيح، أو الأقل جمالا ، فالتوافق يكون بين النفسين ، ولا يمكن تحديد سبب الميل او الحب ، فلا يوجد تماثل في الصورة ولا حتى في الأخلاق ، وإلا كيف نفسر من يحب شريرا وهو خير .

الحب ينشأ بين نفسين ، ولا يقوم على علة ،وإلا فإنه يزول بزوالها ، فمن يحب لحسن الصورة والشكل، فإن الصورة تذهب وتشيخ ، أما الحب الذي ارتبط بالروح فالروح لا تتغير ولا تتبدل ، إذن الحب مجرد عن أي منفعة[1] .

النتيجة : الحب يكون في ذات النفس التي تسعى للعلو والكمال والجمال ، وهو حب لا يقوم على علة ما أيا كانت .

هذا الكلام قاله ابن حزم في القرن الخامس الهجري ، وقانون علم الجمال الحديث بعد خمسة قرون كاملة يقول : " إن أي تعليل في الجمال ينقصه "

[1] من محاضرات الدكتور عصام قصبجي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة حلب 2005

فما قاله ابن حزم يعيد صياغته علماء الجمال من جديد ، والقاعدة :إن الحب لذاته لا لعة ما .

- ثم يبين ابن حزم أنواع الحب وعلاماته وأراءه في كثير من فروع الحب وآثاره ، ويضرب أمثلة من تجاربه هو ، فكثيرا ما يقول : وعني أخبرك . وهو نموذج في الصراحة والصدق والثقة بالنفس لا سيما وأنه صرح أنه لم يقع في حرام قط.

- إذن ابتدأ بالتحذير من الحب والوقوع في المعصية ، وانتهى بالتعفف وبفضل من يخالف النفس في عصيانها وارتكاب حرماتها ، وبما سيحظى به من مقام رفيع في الآخرة ، لأنه استطاع أن يسلم من الحب الذي هو قهري دون أن ينقاد إلى محرم .

- ابن حزم في رسالته لا يريد أن يسلي الناس بموضوع الحب وقصصه ، وإنما يريد تحليل النفس الإنسانية لكي تتجنب المعصية ، ولا تقع في آفة الحب ، لذلك نجده يورد كثيرا من الآيات القرآنية التي تنهي النفس عن الهوى ، وتذكر بيوم القيامة حيث يأتي كل إنسان بعمله ، ويعرض يوم الحساب حيث لا ينفع لا مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

- فالعفة هي الأساس في كون الحب شريفا نورانيا يقرب من الله ، وابن حزم يقدم موضوع الحب بشكل علمي دقيق ، يحلل مجاهيل النفس وأصلها ، حتى يتسنى للإنسان معرفة الطريق الصحيح ليسلكه ، وعسى أن نكون منهم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الرابعة عشرة

النثر الأندلسي(2)

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

- **رسالة التوابع والزوابع**

وهي رسالة نثريّة خاطب فيها ابن شُهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشّعريّ والنّثريّ بأسلوب قصصي شيِّق، فهي من أنواع القصص العربية القديمة، لكن ما معنى التوابع والزوابع ؟ التوابع جمع تابع وهو الجني الذي يتبع الإنسان فيرافقه في تحركاته ، أما الزوابع فهي جمع زوبعة ، وهي شيطان مارد. لأن هناك قول سائد، بأن لكل شاعر أو أديب شيطان أو جني يلهمه الشعر أو النثر .

والتّوابع والزّوابع قصّة رحلةٍ خياليّة إلى عالم الجنّ لم تصل إلينا كاملة ، طلب فيها ابن شهيد من تابعه الجني واسمه زهير بن نُمير أن يأخذه إلى وادي الجن ، فاستأذن رئيسه، ثم طارا معا على ظهر جواد من جياد الجن إلى توابع الشعراء ، فقابلا توابع امرئ القيس وطرفة وأبي تمام والمتنبي وعبد الحميد الكاتب وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم من شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية حيث كان يسمع منهم أشعارهم ويلقي عليهم شعره فيجيزوه معترفين بفضله وسبقه ، وقد تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقديّة، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة[1].

-ابن شهيد الأندلسي (382- 426 هـ)

[1] تاريخ الأدب الأندلسي، عباس: 334

هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد، ولد بقرطبة، وهو من بيت أدب ومجد، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر وأديبًا من أكبر الأدباء في عصره، وورث عنه حفيده أدبه، كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين، ويظهر أنه ورث عن آبائه مالًا كثيرًا بعثره في اللهو والخلاعة زمن أبي عامر المنصور ، فكان مدللا مترفا، جميلا ذكيا معتدا بنفسه ، تولى الوزارة لمدة أسابيع ثم سرعان ما عدل عنها وعاد إلى لهوه ومجونه ، وأقبل على الأدب لأنه يلائم أهواءه وميوله .غير أنه كان مثقفًا ثقافة واسعة بمعارف عصره، وكان له من علم الطب نصيب وافر على أن الجانب الذي تميز به، إنما هو جانب الأدب، فقد كان شاعرًا وكاتبا كبيرًا يضاهي عبد الحميد في أوانه والجاحظ في زمانه، وكذلك كان ناقدا لاذعا ذا جرأة جارحة الأمر الذي سبب في كره الكثير من رجال الحكم والعلم والأدب له وبخاصة المحافظون ،ومع ذلك كانت تربطه ببعضهم علاقة صداقة وطيدة كصديقه العلامة الشيخ ابن حزم ، مرض ابن شهيد مرضا شديدا انتهى به إلى الفالج الذي اشتد عليه وتوفي على إثره[1].

وفي تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلى بحقد معاصريه وحسدهم وإسرافهم في الكيد له والغض من شأنه، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة في وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا: "إن لسجعك موضعًا من القلب، ومكانًا في النفس، وقد أعرته من طبعك، وحلاوة لفظك، وطلاوة سوقك، وقد بلغنا أنك لا تجارى في أبناء جنسك، ولا يملُّ من الطعن عليك والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟"

وهنا يجيب ابن شهيد: بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره، وثالث امتطى ظهر النوى، فألقت به في سرقسطة؛ حيث ينتضي عليه لسانه عند المستعين، وتساعده على إفكه زرافة من الحاسدين، وأنه أنشد في أولئك الأعداء:

وبلَّغت أقوامًا تجيش صدورهم عليَّ وإنّي منهمُ فارغ الصدر

أصاخوا إلى قولي فأسمعت مُعجزًا وغاصوا على سري فأعياهمُ أمري

[1] الذخيرة: 191/1

ولا يكتفي ابن شهيد بإعلان حزنه لتحامل معاصريه، بل يضيف إلى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن — وقد استجادوا شعره — بهذه الكلمة الموجعة: "ما أنت محسنٌ على إساءة زمانك"[1].

وابن شهيد مغرم بمعارضة كتَّاب المشرق وشعرائه، حريص على التفوق عليهم، يريد إظهار تفوقه ومقدرته وفضله.

- ويرى النقاد أنه يعذر في هذا الفتون لما عليه من عبقرية ومقدرة فنية نادرة.

وفي رسالة التوابع إشارة لطيفة إلى رأي ابن شهيد في البيان، وهو يعتقد أن البيان نفحة سماوية لا صلة بينها وبين معرفة النحو والتصريف، فليس يكفي أن يختلف الإنسان إلى الأساتذة يتلقى عنهم، وليس يغني أن يراجع الكتب والدواوين، وإنما يجب أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البليغ.

بمعنى أن البيان شيء آخر غير الكلام المفيد، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تذمه، وشر الكتَّاب من يمرون على القراء فلا يكون لهم قادح ولا مادح، ولا عدو ولا صديق. وهو في كل مرة يطرح آراؤه وأفكاره في قالب قصصي فكاهي يجريه على ألسنة الجن.

- **مناسبة هذه الرسالة :**

إن إحساس ابن شهيد بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يمنحوه حقه من التكريم ، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي كان يرى نفسه أهلاً لها ، فراح يلتمس التقدير والتكريم عند من هم أعلى مقاماً من معاصريه . فأخذ يرد على خصومه ومنافسيه مشيدا ومظهرا قدراته الأدبية ومحاسنه التي تميزه على نتاج معاصريه مؤكدا على تفوقه بصياغة رسالته بصورة قصصية طريفة أفاد فيها من حادثة الإسراء والمعراج، حيث هي رحلة إلى العالم العلوي ، والرفيق فيها كان (جبريل عليه السلام)، ووساطة الانتقال (البراق) ، بينما التوابع

[1] ابن شهيد. أحمد بن عبدالملك، رسالة التوابع والزوابع، تح: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت1987: 91

والزوابع رحلة إلى عالم الجن ، الرفيق فيها جنيا اسمه زهير بن نمير، والوساطة فرسا عجيبة تطير مثل الطيور.

كما أفاد أكثر من المقامة الإبليسية لبديع الزمان الهمذاني ، والتي تدور حول لقاء عيسى بن هشام وهو أحد شخصيات الهمذاني مع إبليس في أحد وديان الجن ، بعدما ضلت منه إبل ، فخرج باحثا عنها حتى حل في وادٍ أخضر فيه أنهار وأشجار وأزهار، فسلم عليه وأمره بالجلوس فامتثل عيسى لأمره ، وصارا يتبادلان أشعار العرب [1].

وواضح التشابه بين التوابع والزوابع والمقامة الإبليسية، فهما يدوران على لقاء شياطين الشعراء وراء عالمنا في وادي الجن ، غير أن معارضة ابن شهيد لبديع الزمان الهمذاني في مقامته لا ينفي إبداع ابن شهيد في رسالته التي ألهمت أبا العلاء المعري كتابه رسالة الغفران الذي ألفه بعد تأليف الزوابع والتوابع بتسع سنين ، كما أن هذه القصة قد تم ترجمتها إلى العديد من اللغات الأوربية ، مما أدى إلى تأثر بعض الكتاب الأوربيين بها ومنهم دانتي في كتابه الكوميديا الإلهية المعروفة .

- **مضمون رسالة التوابع والزوابع:**

وردت في كتاب الذخيرة لابن بسام على شكل فصول، ورغم أنها لم تصل كاملة إلا أنها أعطت صورة واضحة عن فكرة مؤلفها وعن قدراته الفنية والأدبية.

وقد قام بطرس البستاني بجمع نصوص الرسالة ووضعها في كتاب مستقل وقام بدراستها وتحقيقها تحت عنوانها الأصلي رسالة التوابع والزوابع، مقسما الرسالة إلى مدخل وأربعة فصول:

- ذكر ما قال فيه صديقه أبو بكر بن حزم ، وكيف نبض فيه عرق الفهم بقليل من المطالعة، ثم ينتقل إلى خبر موت حبيب له ورثائه فيه، فأرتج عليه القول، فإذا بجني اسمه (زهير بن نمير)

[1] أحمد بدوي وزميلاه، الأدب وروح العصر، ذات السلاسل، الكويت1985: 179

يلقي إليه بتتمة الشعر رغبة في اصطفائه وتقريبه إليه ، يقول: " متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات:

وآلى زهير الحب يا عز أنـه إذا ذكرته الذكـرات أتـاها

إذا جرت الأفواه يوماً بذكرها يخيل لي أنـي أقبـل فـاها

فأغشى ديار الذاكرين وإن نأت أجارع من داري هوىً لهواها

الفصل الأول: وبواسطة هذا الجني زهير بن نمير يحلق شاعرنا معه على متن جواده الذي يسير بهما كالطائر يجتاب الجو ويقطع الفلاة، حتى يحط على أرض ليست كالأرض، يلتقي فيها مع شياطين الشعراء، أمثال: امرئ القيس وطرفة وأبي تمام وأبي نواس والبحتري والمتنبي وغيرهم ، ويعقد معهم مجالس وحوارات، وينشدونه أحسن ما نظموا، ويسمعهم هو من شعره أجمل ما نظم ، وهي إلى المحاكاة والمعارضة أقرب، ثم يحدث أن يعترف كل شيطان شاعر بعلو مكانته ورفعة منزلته ومقدرته الأدبية، فيجيزونه.

الفصل الثاني: ينتقل أبو عامر بن شهيد مع صاحبه زهير إلى ناد آخر يضم خطباء الجن وفرسان الكلام، فالتقى بصاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد الكاتب، " فيأخذان عليه شغفه بالسجع فيدافع عن نفسه، فيجد من صاحب عبد الحميد عنفا فيقابله بالطعن على بداوة أسلوبه، فيبتسم له، ويباسطه ثم يقرأ عليهما رسالة الحلواء فيضحكان منها ويستحسناها، ويشكو إليهما أمر حساده عند المستعين". وينتهي بالإجازة منهم والإقرار له بالأولوية في النثر بين أبناء قومه : " إن لسجعك موضعا من القلب ومكانا في النفس، وقد أعرته من طبعك، وحلاوة لفظك وملاحة سوقك، وقد بلغنا إنك لا تجارى في أبناء جنسك ولا يمل الطعن عليك والاعتراض لك..." ثم يجيزونه قائلين : " اذهب فإنك شاعر خطيب".

وهو في هذا القسم أظهر قدراته الكلامية حين عارض عمالقة النثر العربي في المشرق، وحاول أن يثبت شخصيته البلاغية والأدبية أمامهم.

الفصل الثالث: خصصه ابن شهيد لمسألة مهمة في الشعر العربي، وهي السرقات الأدبية وأخذ الشعراء للمعاني بعضهم من بعض، ومن أخذ فأحسن الأخذ وزاد، ومن أخذ فقصر، ولم يصل إلى درجة

من سبقه في المعنى، وقد أراد ابن شهيد من عرضه لتلك المسألة تأكيد مقدرته الشعرية والأدبية ونفي ما كان يرميه به أقرانه من الشعراء من أخذ وسرقة، فهو من بيت أدب وثقافة، لم يمارس الأدب صنعة وتكلفا وإنما نبغ له عرق الفهم ودر له شريان العلم بعد أن ورث ذلك عن أبيه وجده وأخيه وعمه، وقد ظهر في هذا الفصل ابن شهيد الناقد المتمرس، ومن أبرز القضايا النقدية التي تناولها ابن شهيد في رسالته التوابع والزوابع:

- السرقات الشعرية
- الطبع والصنعة
- اللفظ والمعنى
- القديم والمحدث
- المعارضات الشعرية
- الموهبة والمعرفة
- وحدة العمل الأدبي
- اختلاف الذوق الأدبي باختلاف العصور
- علاقة التكوين النفسي بالتكوين الجسدي وأثره على الأدب

الفصل الرابع: يصل ابن شهيد مع صاحبه زهير إلى نادٍ لحمير الجن وبغالهم، وقد طلبوا منه أن يحكم في شعرين لحمار وبغل، فيسمع من الاثنين ثم يحكم للبغلة على الحمار بأسلوب يناسب لغة الحمير والبغال وينسجم مع ما ورد من شعريهما من ألفاظ، ثم يذكر إوزة بيضاء شهلاء ذات حظ من الأدب، شاهدها في بركة ماء، وبعد محاورتها يشعرها بحماقتها، ويتفقان أن العقل أفضل من الأدب، الخ...،في هذا الفصل أراد

أن يشير إلى خصومه وحساده، ومن كان يكن له الحقد من أهل الأدب والسياسة، لذا شبههم بالبغال والحمير والإوزة، لعدم امتلاكهم العقل والحكمة والتجربة، فكانوا سبب الفوضى التي سادت الأندلس[1].

وأخيرا فرسالة التوابع والزوابع لابن شهيد تعد انعطافة قوية وشاخصا لا يمكن تجاهله على المسيرة الأدبية في الأندلس، وأنها عمل أدبي مستقل قائم بذاته ، وهي نتاج عقلية ذكية وخيال شعري خلاق مبدع جمع العديد من الجزئيات وأعاد بناءها وتركيبها، وصقلها ليقدمها عملا فنيا متميزا.

- **نص من رسالة التوابع والزوابع: (شيطان امرئ القيس)**

"تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء مَن اتّفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر، وقد أُذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطّائر، يجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا. متفرعُ الشّجر عطر الزّهر، فقال لي: حللت أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟

قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسيّ، وعرّفتنا كيف إجازتك له!

فظهر لنا فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأيّ جمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيّد أولى بالإنشاد.

فتطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا وكرّ، فاستقبلنا بالصعدة هازّاً لها، ثمّ ركزها، وجعل يُنشد:

---

[1] ينظر رسالة التوابع والزوابع : 12 وما بعدها

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا

حتى أكملها، ثمّ قال لي: أنشدْ، فهممتُ بالحيصة، ثم اشتّدتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

شجتهُ مغانٍ من سُليمى وأدْؤُرُ

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي :

ومِنْ قُبَّةٍ لا يدركُ الطّرفُ رأسها تزلُّ بها ريحُ الصبّا، فتحدَّرُ

تكلّفْتُها، والليلُ قدْ جاشَ بحرهُ وقدْ جعلتْ أمواجُهُ تتكسَّرُ

ومِنْ تحت حضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ وفي الكفّ من عسَالةِ الخط أسمَرُ

هما صاحباي من لَدُنْ كنتُ يافعاً مُقيلانِ من جِدّ الفتى حين يَعْثُر

فذا جَدْولٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى وذا غصُنٌ في الكفّ يُجنى فيُثمرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبةُ، ثم قال: اذهب، فقد أجزْتُكَ، وغاب عنا "[1]

الشرح الأدبي:

تحدث ابن شهيد في نص (شيطان امرئ القيس) مع تابعه الجني زهير بن نمير حول توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم الذين يلهمونهم أشعارهم وأُدبهم، وأبدى رغبته في لقاء بعضهم، فلم يستطيع تابعه زهير أن يلبي رغبته إلا بعد أن يستأذن في ذلك رئيسه الجني الأكبر، فطار إليه، وعاد بالإذن بسرعة مذهلة كأنها لمح البصر،الأمر الذي يذكرنا بقصة (سليمان) عليه السلام عندما أراد أن يحضر عرش الملكة (بلقيس) قبل أن تصل إليه، فأحضره إليه مَن عنده علم من الكتاب قبل أن يرتد إليه طرفه. ركب ابن شهيد وتابعه زهير على ظهر جواد من جياد الجن، لا يعدو كالخيل التي نعهدها، وإنما يطير في الفضاء طيراً سريعاً، فقطع الأجواء واجتاز المسافات والفلوات، حتى وصل بهما إلى أرض غريبة وواد واسع عجيب ذي أشجار

[1] نفسه: 91

متشابكة الأغصان ذات أزهار عطرة نضرة، فقال الجني زهير لابن شهيد: هذه أرض الجن يا أبا عامر. ويلفت نظرنا تلك العلاقة الطيبة بينهما، واحترام الجني الكبير لابن شهيد وطاعته له، ويبدو هذا في إسراعه إلى تلبية رغبته في زيارة توابع الشعراء والكتاب، وفي تجشمه عناء الاستئذان، وفي مخاطبته له بكنيته وليس باسمه تكريماُ وتعظيماً، كما يتضح هذا أيضاً في أن الجني قد خيره قائلاً: بمن تريد أن نبدأ؟ فاختار أن يكون البدء بالشعراء، على الرغم من أن الكتاب أولى بالتقديم، إلا أنه مشتاق إلى الشعراء أكثر، ثم سأله أيضا: من تريد منهم؟

فاختار ابن شهيد أن يكون الأول شيطان امرئ القيس، فلبى الجني زهير من غير تردد، وعطف جواده إلى وادٍ متشابك الأشجار،يعلو فيه غناء الأطيار،فلما وصلا. نادى التابع زهير شيطان امرئ القيس وتابعه (عتيبة بن نوفل) وأقسم عليه بسقط اللوى فحومل اللذين وقف عليهما امرئ القيس واستوقف، وبكى واستبكى، لأنهما منزل الحبيبة، ثم أقسم عليه أيضاً بيوم دارة جلجل أن يخرج إليهما ويستقبلهما، وينشدهما شعره، ويسمع من ابن شهيد شعره ويقومه وينقده.

استجاب عتيبة بن نوفل شيطان امرئ القيس وملهمه، وظهر على هيئة فارس يمتطي فرساً شقراء كاللهب في عجب وخيلاء، فسلم على الجني زهير أولاً، ثم قال له: حيا الله صاحبك، ثم سأله: أهذا فتاهم؟، الأمر الذي يدل تكبره واستخفافه بابن شهيد في أول الأمر. ولكن تابعه زهير أجابه معلياً قدر صاحبه قائلاً: هو هذا، وإنه لفحل من فحول الشعر فاق الشعراء جميعاً.

استنشد عتيبة شيطان امرئ القيس ابن شهيد، إلا أنه تواضع ليرضي غروره، فخاطبه بالسيادة وطلب منه أن يكون الأول إنشاداً لأنه الأولى، الأمر الذي أرضاه وأسره وأطربه فازداد غروراً وضرب فرسه بسوطه ثم وقف أمامهما وركز رمحه في الأرض، وأنشد قصيدة رائية لامرئ القيس كان قد وصف فيها رحلته إلى بلاد الروم.

انتهى عتيبة من الإنشاد، فاستنشد ابن شهيد إلا أنه خاف وحدثته نفسه بالهرب من شدة الموقف ولكنه استجمع قواه وأنشده قصيدة رائية له ومن الوزن نفسه (الطويل)، فلما انتهى منها نظر إليه عتيبة نظرة

إعجاب وإكبار وتعظيم، فلقد اختلف موقفه الآن عما كان عليه من قبل، وقال له : أجزتك ثم غاب عن الأبصار، بينما انتقل ابن شهيد وتابعه زهير إلى شيطان آخر من شياطين الشعراء.

تحليل النص

1- على الرغم من الشكل الأسطوري للقصة إلا أنها مرتبطة بالواقع الذي عاش فيه ابن شهيد وعاصره ، فغايته من هذه القصة أن يظهر تفوقه على امرئ القيس باعتراف شيطانه ، وهي رسالة مبطنة لمنافسي ابن شهيد وحساده وطعنة خفية لهم بإظهاره فضله عليهم .

2- القصة استوفت عناصرَها فمن حيث الشخصيات هي قليلة تتألف من ابن شهيد وهو الراوي والبطل ، نراه معتدا بنفسه يتحدى المخاطر ، يحيطه تابعه الجني (زهير) بالإجلال والطاعة والتعظيم ، ويتفرغ له ليلبي رغباته، فياخذه إلى حيث يريد وينادي له توابع الشعراء والكتاب وزوابعهم ، ويقدمه إليهم محاطا بالفخامة والتعظيم .أما الشخصية الثالثة فهي تابع امرئ القيس عتيبة بن نوفل ، ويتسم بالقوة والعزة والعجب، ويبدو ذلك من خلال صورة الفارس التي رسمها له ابن شهيد ، ومن خلال مخاطبته له بلهجة التكبر والاستعلاء .

أما المكان فهو وادي عبقر ، عند دوح تتكسر أشجاره وتترنم أطياره ،وأما الزمان فغير محدد إلا أنه يتوافق والزمن الواقعي لابن شهيد .

أما الحوار فكان موجز يتناسب وشخصيات القصة ، انتقل من مقدمة طريفة جرت بين البطل ابن شهيد وتابعه ثم انتقل إلى الحبكة حيث لقائه مع تابع امرئ القيس وما جرى من مداولات شعرية انتهت إلى الحل والنهاية حيث أجاز ابن شهيد واعترف له بأفضليته وهذا ما أراده الراوي ووصل إليه .

- إن اكتفاء ابن شُهيد بذكر شطر واحد من قصيدة امرئ القيس:

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرا

له دلالة نفسية على حالة السمو والتكبر وإعجاب ابن شهيد بنفسه وإبرازه لشخصيته دون غيرها ، كما أن الصورة العظيمة التي رسمها ابن شهيد لشيطان امرئ القيس وذلك من خلال امتطائه لفرس تلتهب ، وسؤاله أهذا فتاهم التي تدل على التحقير والتصغير،كانت وسيلة ليعلي بها منزلته ، لأن انتزاع الإجازة والتقدير من عظيم متكبر خير له من أن ينتزعها من متواضع مجامل ، ودليل على علو منزلته وأصالة شاعريته.

3- ألفاظ النص فصيحة قليلة الغريب مثل الدو – الصعدة – الحيصة .أما التراكيب فكانت بليغة واضحة نسيابية ، رشيقة العبارة محكمة ، فيها جزالة وإيجاز ، أسلوب رائق غني بالموسيقى لكن لا تكدره الصنعة لعدم إفراطه فيها ، ومع أنه التزم السجع إلا أنه كان سجعا لطيفا له دلالاته، مثل قول الجني زهير : يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك..وقد أراد بهذا السجع أن يجعل الكلام أقرب إلى سجع الكهان ولغة الجان ، فيكون أكثر التصاقا بقائله وطبيعته .

كما أن أسلوبه الراقي في الحوار واختياره تراكيب تحمل في طياتها ملامح بيئة الشاعر الذي هذبته أناقة القصور التي استظل في أفيائها ونشأ نشأة مترفة في قصر الخليفة المنصور ، ومخالطته طبقة من أبناء النعيم والوزراء ورجال البلاط ، كل هذه الأمور انعكست على هدوء حديثه ووقار كلامه وأكسبته نفسية الأديب المثقف والنزعة النرجسية التي نلمحها في شخصيته.

4- نجد ابن شهيد قصاصا ماهرا وفنانا في اختياره صوره الفنية ، فقد عني بالصور الفنية التي أضفت على النص خيالا مبدعا بما فيه من أعضاء وألوان وحركة وصوت ، الأمر الذي أوضح الصورة وقربها من ذهن القارئ، فقد استعان بصور معبرة دقيقة مثل ..(انصرف كلمح البصر)التي تدل على السرعة الخيالية والقدرة الخارقة ، ومثل(سار بنا كالطائر)الدالة على السرعة والرشاقة واليسر والجمال ، (فرس شقراء كأنها تلتهب)صورة ملتهبة ذات أبعاد كثيرة حيث يطير بنا الخيال والتساؤلات : هل تلتهب لونا أو حركة ونشاطا أو غير ذلك ..وكذلك حين يشبه نفسه بالجمرة الدالة على الالتهاب والتلألؤ وعلى التعظيم والتعجب..وهناك صور غامضة تثير الخيال على الرغم من بساطتها فحين يصف أرض الجن يقول (حتى لمحت أرضا لا

كأرضنا وشارفت جوا لا كجونا) فلقد أطلق العنان لخيالنا أن ينطلق دون حدود أو قيود ليرسم عالم الجن والشياطين بأبعاد وجماليات عديدة ..الأمر الذي يدل على عبقرية ابن شهيد في فن التصوير..

5- كما عني ابن شهيد بإيقاع أسلوبه فالنص مليء بالموسيقا الداخلية الهادئة المستساغة ، ففي قوله (يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا. متفرعُ الشّجر عطر الزّهر) فكل كلمة تتوازن وتتعادل مع قرينة لها في الجملة الثانية ، فتدخل نفس المتلقي بانسيابية يشعر معها براحة وكأنها عزف بديع[1] .

- **خصائص رسالة التوابع والزوابع:**

1- جمع فيها ابن شهيد بين الشعر والنقد في قالب نثري.

2- شيوع روح الفكاهة فيها، فهي تروح النفس ولا تجعلها تهوي في مزالق الملل والسأم.

3- التركيز على الخيال، حيث إن الرسالة تجري في عالم الجن الخيالي الذي يلغي الواقع، وقد انعكس هذا على أسلوبه فضمنه العديد من الصور المجازية (تشبيه واستعارة وكناية) مما يخلق للرسالة عالما خياليا لا يمكن دخوله إلا من رزق موهبة البيان.

4- الالتزام بتقنيات السرد: الشخصيات، الزمان، المكان، الحوار، الحبكة.

5- انعكاس الطبيعة الأندلسية في هذا العمل الأدبي: تضمنت كل شيء جميل من أنهار، ووديان وغابات، تترنم أطيارها وتفوح بالطيب أزهارها.

6- تجلت نرجسية ابن شهيد وإعجابه بنفسه في هذا العمل الأدبي، وذلك حين أراد أن يخرج من دائرة المألوف، فطار بأرض الجن وقابل توابع الشعراء والخطباء ونقاد الجن، وحصل على إجازات منهم.

---

[1] اينظر لأدب وروح العصر: 184-188

7- انعكاس التيار المشرقي في الرسالة، حيث قابل توابع شعرائهم وخطبائهم وقام بمعارضة أشعارهم وخطبهم وأدبهم .

الخاتمة :

كان الأدب الأندلسي – عبر ثمانية قرون ونيف– امتدادا للأدب العربي في سائر الأمصار العربية المشرقية، غير أنه عُدّ رافدا جديدا ، فيه من محاولات الإبداع والتجديد مثل ما فيه من محاولات المحاكاة والتقليد، وبين هذا وذاك كوّن الأدب الأندلسي طابعا متميزا له سماته وخصائصه.

وقد حاولت من خلال محاضراتي أن أعرض للطلبة أبرز جوانب الأدب العربي في الأندلس، لاسيما وقد غدا للأندلس في قلوب الأجيال العربية مكانة مرموقة، قوامها الإعجاب بحضارتها، والإجلال لتراثها، والزهو بتاريخها، وما زالت الأعناق تشرئبّ للتطلع إلى القصور الأندلسية ومحافلها العلمية والأدبية الثرية، وحدائقها الزاهية الغنّاء، وساحات مدنها النقيّة الراقية وما ارتبط بها من قصص العشق والغرام، وما زالت النفوس ترفد الواقع التاريخي وتوشّيه بهالة من الحبّ والتقديس، وتلتهب مشاعر اللوعة والحسرة التي انطوت عليها جوانح العرب بفقدهم تلك الدرة النفيسة، فتفيض تلك العواطف الجياشة بمجرد ذكر كلمة الأندلس ذلك الفردوس المفقود.

لذا فقد توجهت بهذه الوريقات إلى الطلبة، فوقفت عند جوانب التجديد في الشعر والنثر تارة، وجوانب التقليد والمضاهاة تارة أخرى، وعرّفت بعدد من الأعلام البارزين في الشعر والنثر ممن أثّروا في مجريات الحياة الأدبية، والتي ثبتت في ذاكرة الأدب على امتداد العصور، راجية أن يروي ما فيها ذلك الشوق والشغف المعرفي لديهم بما يزيد معارفهم ويمتع نفوسهم ويسرّ خواطرهم. والله ولي التوفيق .

قائمة المصادر والمراجع

- آل طعمة. محمد عدنان ، تاريخ عبد الرحمن الناصر، دار سعد الدين ، دمشق 1992 .
- ابن الأبّار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي ،
  - تحفة القادم، تح: إحسان عباس، ط1 دار الغرب الإسلامي، الأولى، 1986.
  - الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، دار المعارف،القاهرة 1985.
- الأعمى التطيلي. أحمد بن عبد الله أبو العباس ، ديوان الأعمى التطيلي ، تح: إحسان عباس ، دار صادر، بيروت 1980 .
- الإلبيري. أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي، ديوان أبي إسحاق الإلبيري تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت/دمشق 1991.
- الباشا. مهجة، سقوط الأندلس، دار شراع، دمشق2003.
- بالنثيا.آنجل، تاريخ الفكر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.
- البحتري. الوليد بن عبيد، ديوان البحتري، تح: يوسف الشيخ محمد، دار الكتب العلمية،بيروت2017.
- بدوي.أحمد وزميلاه، الأدب وروح العصر، ذات السلاسل، الكويت1985.
- برّو. توفيق، التاريخ السياسي والحضاري العباسي والأندلسي، مديرية الكتب الجامعية ، حلب ، 1989.
- ابن بسام . علي الشنتريني أبو الحسن ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح: إحسان عباس ، لبنان بيروت ، 1979 .
- توفيق. عمر إبراهيم ، الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس"موضوعاته وفنونه "، دار غيداء، عمّان – الأردن 2011 .

- الجراوي . أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، الحماسة المغربية ، تح: محمد رضوان الداية ، دار الفكر، دمشق 1991م .
- الجراوي . أبو العباس أحمد بن عبد السلام ، ديوان الجراوي ، تح: علي إبراهيم كردي ، دار سعد الدين ، دمشق 1994م .
- الحجي . عبد الرحمن علي ، التاريخ الأندلسي ، دار القلم ، دمشق ،ط: 3 ، 1987م .
- الحميدي. محمد بن فتوح الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: محمد الطنجي، دار الكتب المصرية، القاهرة 1966.
- ابن حزم . علي بن أحمد ، طوق الحمامة في الإلفة والألاف، مكتبة التبيان ، دار الجوزي ، القاهرة 2018 .
- الحميري. إسماعيل بن عامر أبو الوليد، البديع في وصف الربيع، تصحيح: هنري بيريس، المطبعة الاقتصادية ، الرباط 1940 .
- ابن الخطيب. لسان الدين محمد بن عبد الله،
  - ، الإحاطة في معرفة أخبار غرناطة ، تح: محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط 2، 1973 .
  - أعمال الأعلام ، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت 1959.
  - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تح : أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1964.
- ابن خفاجة. إبراهيم أبو إسحاق، ديوان ابن خفاجة، تح: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت 2006.
- ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد المغربي،
  - تاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 1988.
  - مقدمة ابن خلدون، تح: عبدالله محمد درويش ، دار يعرب، دمشق 2004 .
- الداية. محمد رضوان ، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق 2000.

- ابن دحية الكلبي. عمر بن حسن الأناسي أبو الخطاب ، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وزميلاه، راجعه: طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1955 .
- ابن دراج . أحمد بن محمد القسطلي ، ديوان ابن دراج ، تح: محمود علي مكي ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1961 .
- الدقاق. عمر، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت 1975.
- الركابي. جودت ، في الأدب الأندلسي، ط2 دار المعارف، مصر 1966 .
- الزبيدي. محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس: تح: جماعة من المختصين، دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت .
- الزركلي. خير الدين، الأعلام، ط15 دار العلم للملايين، بيروت 2002 .
- ابن زمرك . محمد بن يوسف الصريحي ، ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تح : محمد توفيق النيفر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1997م.
- ابن زيدون. أحمد بن عبدالله أبو الوليد، ديوان ابن زيدون، تح: عبد الله سنده، دار المعرفة ، بيروت 2005.
- ابن سعيد المغربي. علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف،ط4، دار المعارف، القاهرة 1964.
- ابن سناء الملك. هبة الله بن جعفر أبو القاسم،تح:جودت الركابي، دار الطراز في عمل الموشحات، دار الفكر، الثالثة: 1400 هـ – 1980.
- الشكعة. مصطفى، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت د.ت ,
- ابن شهيد. أحمد بن عبد الملك،
  - ديوان ابن شهيد، تح: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي، القاهرة 2013.
  - رسالة التوابع والزوابع، تح: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت1987.

- ابن صاحب الصلاة . عبد الملك بن محمد ، المن بالإمامة ، تح: عبد الهادي التازي ، دار الأندلس، بيروت 1964 .
- الصفدي. صلاح الدين بن أيبك ، توشيح التوشيح، تح: ألبير حبيب مطلق، دار الثقافة، بيروت ، 1966 .
- الصلابي . علي محمد ، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، دار المعرفة ، بيروت ، ط: 3/ 2009.
- ضيف. شوقي،
  - تاريخ الأدب العربي، الأندلس، دار المعارف، القاهرة 2009.
  - من المشرق والمغرب بحوث في الأدب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1998.
- ابن عباد . أبو القاسم محمد ، ديوان المعتمد بن عباد ، تح: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1951 .
- عباس . إحسان ،
  - تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ط2 دار الشروق ، عمّان1997.
  - تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة)، ط2 دار الثقافة، بيروت 1969 .
- عباسة. محمد، الموشحات والأزجال الأندلسية، دار أم الكتاب، الجزائر 2012.
- ابن عبد ربه . أبو عمر أحمد ،
  - ديوان ابن عبد ربه ، تح: محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1979.
  - العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت2006.
- ابن عذاري . محمد المراكشي أبو عبد الله ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تح: كولان وليفي بروفنسال ، المكتبة الأندلسية 22 ، دار الثقافة ، بيروت 1980.
- عطية. إسلام ربيع، في صحبة النص الأدبي الأندلسي، ط1 دار النابغة، مصر2021

- عنان . محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ط4 مكتبة الخانجي ، القاهرة 1997 .
- عيسي. فوزي، الموشحات والزجل في الأندلس في عصر الموحدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- الفاخوري . حنا ، الفخر والحماسة ، ط2 دار المعارف، مصر 1992.
- أبو فرج الأصفهاني. علي بن الحسين ، الأغاني، تح: سمير جابر، دار الفكر ، بيروت ط2 ، د.ت.
- قصبجي. عصام ، أمالي الدكتور عصام قصبجي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة حلب 2005.
- ابن قوطية. محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتب المصري، القاهرة 1989.
- الكريم. مصطفى عوض، فن التوشيح، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1974 .
- ابن اللبانة. محمد بن عيسى أبو بكر، ديوان ابن اللبانة الداني، تح: محمد مجيد السعيد، ط2 دار الراية ، عمّان 2007.
- مجاهد مجهول من المقاومة الإسلامية في غرناطة، آخر أيام غرناطة، تح: محمد رضوان الداية ، ط 2، دار الفكر ، دمشق ،2002.
- ابن مجبر. أبو بكر يحيى البلنسي، شعر ابن مجبر الأندلسي، تح: محمد زكريا عناني، دار الثقافة، بيروت2000 .
- مجهول المؤلف، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبط وتعليق : الفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد / الظاهر 2002.
- المحبي. محمد أمين بن فضل الحموي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تح: محمد حسن إسماعيل ، دار صادر، بيروت.

- المراكشي. عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح : صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت 2006 .
- مقداد. رحيم، عروض الموشحات الأندلسية ، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1990.
- المقري . أحمد بن محمد التلمساني ،
  - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 2004.
  - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا وزميلاه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة1939.
- ابن معصوم . علي بن أحمد صدر الدين المدني الحسني، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، تح: محمود خلف البادي، دار سعد ودار كنان، مصر 2009.
- الناصري. أحمد بن خالد، شهاب الدين، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري وزميله، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت .
- هيكل .أحمد ، الأدب الأندلسي ، ط6، دار المعارف ، مصر 1971.